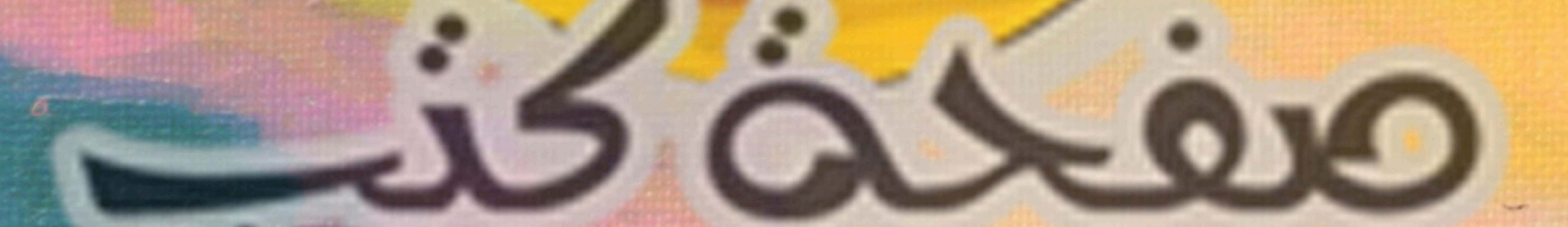
منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



سمير قسيمي

يوم رائع للموت

رواية


صفحة كتب
الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى!
مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

يوم رائع للموت

رواية

سمير قسيمي



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef



ISBN 978-614-421-606-4

الطبعة الأولى

1430هـ - 2009 م



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 1 00961
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 1 00961 – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الإهداء

خالصة إلى الصديقين إسماعيل بوحادة ومحمد عاطف. ب
إليكما وفقط

الفصل الأول

لحظة انفصلت قدماه عن الحافة انتابه الشك في قراره الأخير، لم يعد متأكدا منه كما كان منذ أقل من ثانية، فعلى الأقل لم يكن يعلم أن مشهد الفراغ الممتد من مكانه إلى غاية الرصيف، سيؤثر على قلبه مثلما يفعل الآن، فيجعله ينبض نبضات متسارعة تكاد تمنع عنه الهواء.

«هل أنا خائف؟»

قال لنفسه بعدما شعر بجسده يتجه مباشرة إلى الأرض، دون أن يملك مكنة تغيير اتجاهه، والحقيقة أنه حاول في جزء من ثانية أن يقلب نفسه في الهواء، بحيث يجعل سقوطه سقوطا شاقوليا، فقد كان يرغب أن تصل قدماه الأرض أولا، وبذلك لن يصيب وجهه أي مكروه، ولكنه اكتشف استحالة الأمر، فلم يكن قادرا على التحكم في جسده فتملكه الإحباط، لكن ليس لوقت طويل، فلديه الآن ما هو أهم من مجرد رغبة تافهة في السقوط على قدميه.

سقوطه المقلوب على رأسه جعله يلاحظ السماء، لقد كانت غاية في الصفاء، لا غيم ولا سحاب، حتى الحرارة كانت معتدلة. فقد كان يوما جميلا يصلح للحياة ولكنه كان في ذات الوقت يوما رائعا للموت، ولعل هذا ما جعله يختار هذا اليوم بالتحديد لينفذ قراره الخطير رغم أنه اتخذه منذ أكثر من ستة أشهر، إلا أن أسباب البقاء على قيد الحياة لم تعد كافية مثلما كانت حينئذ لتجعله يعدل عن فكرة السقوط، فستة أشهر مدة كافية ليفكر في الأمر، ولقد استقر أخيرا على قراره واطمأن إليه.

أكثر ما جعله يقتنع بفكرة الانتحار، ما تحمله من شاعرية يضفيها الناس على من يقتل نفسه، فالمنتحر استثناء بشري لقاعدة القضاء والقدر، فهو الوحيد الذي يعرف مقدار عمره ولحظة انتهاء أجله، كانت نشوة معرفته بلحظة موته أكثر ما جعله يقدم على فكرة السقوط، أما ما قد يضفيه انتحاره من شاعرية، فلن يكون حاضرا للاستمتاع به ولكنه يعلم ما قد يقول الناس:.. «مات في سبيل الحب».

ورغم أن لا علاقة لانتحاره بالحب، إلا أن وقع هذه الجملة في نفسه ساهم أيضا في قراره، فقد قرأ كل ما كتب عن المنتحرين في سبيل الحب، من كيلوباترا إلى «عمار الطونبا» الذي ألقى بنفسه تحت قطار، ووجد أن ما كتب رغم ما فيه من

مبالغة وتملق وكذب، يستحق أن يجازف في سبيله بحياة عظيمة، فما باله بحياة كحياته أحسن ما فيها رحل منذ ستة أشهر.

وحتى تكون ذكراه أسطورية فقد كتب إلى نفسه رسالة يبين فيها أسباب انتحاره وبعثها إلى نفسه في البريد، وقد قدر أنها لن تصله إلا بعد أسبوع في أحسن الأحوال، أي بعد أربعة أيام من اليوم، وهكذا ستذكره الجرائد مرتين: مرة لتعلن عن انتحاره المأساوي، ومرة ثانية لتعلن عن وصول رسالة تظهر للعلن أسباب موته، وكأنها رسالة بعثت من قاع القبر، حُملت على أجنحة الموت.

ولكن الأهم من كل ذلك، كيف استطاع أن يفلت من قبضة القضاء ويجعل لحظة موته قرارا يتخذه بنفسه دون أن يتدخل في ذلك القدر، سيكون هذا القرار أول ما استطاع اتخاذه منذ أن وطئت قدماه الحياة، فهو لم يختر أبويه ولا إخوته ولا اسمه ولا حتى ما حدث له لاحقا، لذلك فقد كان سعيدا وهو يهم بالقفز من سطح إحدى عمارات عدل بالكاليتوس.

الحقيقة أنه فكر في كذا طريقة للانتحار ولكنه في الأخير عدل عنها جميعا، فهي جميعها تنتهي بما انتهى إليه انتحار «عمار الطونبا».. موت «سامط».. حدث ذلك منذ شهرين بعد أن فقد عمار الطونبا كل أمل في الزواج بحبيبته. كانت تدعى «نيسة بوتوس»، اسم حملته وهي تلميذة في المتوسطة وظل يتبعها حتى رحلت عائلتها خوفا من انتقام والدة عمار وشقيقيه بعد انتحاره. ولعل الجميع بمن فيهم عمار الطونبا لم ينس سبب تسميتها بهذا الاسم «بوتوس»، ورغم ذلك فقد كان الطونبا لولعه بها، كلما ذكرت له بهذا الاسم يستشيط غضبا، ويهدد بالقتل كل من يجرؤ على نعتها ببوتوس . كان يكفي أن يهدد ليمتثل الجميع لرغبته، لما كان يعرف عنه من «رجلة» و«تشوكير». ولفرط خوف الجميع منه تناسوا قصة تسمية حبيبة عمار بنيسة بوتوس واكتفوا بنيسة أو «نيسة نتاع عمار» إذا أرادوا تمييزها. ولكنهم سرعان ما عادوا إلى تذكر اسمها وقصتها بمجرد أن تناهى إليهم خبر انتحار عمار.

يقال أن عمار الطونبا حاول لسنوات أن يقنع أباه بضرورة زواجه من نيسة دون أن يفلح، حتى يئس لولا رحمة الموت الذي أعاد له الأمل من جديد بعد أن انتقل أبوه إلى السماء اثر سكتة قلبية، ولم يكد أن يدفن والده حتى فاتح أمه في الموضوع..

«ما تحشمش.. باباك مات عندو ثلث أيام وانت حاب تتزوج من هديك الخامجة..»([1])

هكذا صاحت فيه أمه حين فاتحها عمار الطونبا في الموضوع، والحقيقة أن رد فعلها صعقه، فقد «كان يظن أنها لا تأبه بمن يتزوج ما دام زواجه سيسعده، ثم إنها لطالما حاولت أن تقنع زوجها بنيسة دون أن تفلح هي الأخرى، فما الذي تغير؟..

ربما لم يكن على عمار الطونبا أن يلح على أمه بالسؤال، ولكنه فعل حتى باحت له أمه بالحقيقة:

«ولدي هذه وصية أبيك على فراش موته، أوصاني أن أمنعك من الزواج منها، ولما سألته عن السبب، قال لي....».. وأجهشت بالبكاء. وحين هدأت استمرت في البوح «.. قال لي أنه (ما يكولش وليدي من خبزة باباه([2]))).. أتعرف ما معنى ذلك.. يعني راك حايب تتزوج من خامجة باباك..»..([3])

إلا أن هذه كانت رواية أمه فحسب، أو أنها كانت القصة غير المكتملة، لأن ما حدث بين والدي عمار الطونبا كان أهم وأخطر من مجرد وصية رجل على فراش الموت.

-2-

قدّر حليم بن صادق لحظة ارتطامه بالأرض أن تكون بعد عشر ثوان من لحظة قفزه من أعلى العمارة، إذ كان يكفيه أن يعرف وزنه وارتفاع العمارة وبعض القواعد البسيطة في الفيزياء، ليحسب بدقة كم يستغرق من وقت ليرتطم بالأرض، أما عن فرص نجاته فكانت تساوي الصفر، وهو ما جعله يوقن أنه سيموت بعد عشر ثوان تحسب من لحظة قفزه من أعلى العمارة.

أكثر ما كان يشغل باله لحظة قفز في الهواء، ما أصاب الوقت من تمدد، جعله يتصور أن الوقت المتبقي في حياته أطول من حياته كلها، وإلا كيف ارتابه الشك في قراره بالانتحار، وكيف أدرك أنه شك، ألا تستغرق رحلة إدراك العقل للمشاعر أكثر من عشر ثواني؟، فكيف إذن لم يستغرقه هذا الإدراك إلا جزء من ثانية؟.

«ربما هو شعور سابق للحظة». قال لنفسه محاولا طمأنتها وهو ينظر إلى

جسده الضخم يتهاوى من علي. لحظتها أدرك أنها المرة الأولى في حياته التي ينظر فيها إلى جسده بالمقلوب، ولعلها المرة الأولى التي يستغرب فيها من ضخامة بطنه، فلم يكن يتصور أنها على هكذا ضخامة، ثم سرعان ما كره ما كان يرتدي من لباس، فتساءل بما يوحي بالحسرة: «هل ستتذكر الجرائد غدا ما كنت ألبس؟».. كان هذا السؤال كافيا ليبعث الشك في نفسه من جديد، فلعله لم يحسب للأمر كما ينبغي، أو على الأقل تجاهل بعض التفاصيل في خطته التي كانت تقتضي أن يكون موته مأساويا، غاية في الشاعرية والفلسفة، ولكن ما كان لكذا تفصيل أن يكدر سعادته بانتصاره التاريخي على القضاء، لأنه حين تحين لحظة الارتطام- بعد أقل من عشر ثواني- سيكون قد سجل مع الذين استطاعوا بشجاعتهم أو بتهورهم (لا يهم)، أن يتحكموا في مصائرهم، ويحددوا تاريخ موتهم.. إنه انتصار ساحق على هذا الذي قيل أنه لا يهزم، لم تعد الحياة في حياته كطابة تلهو بها رجل القدر، فتسجل الأهداف كيفما شاءت ووقتما تريد.

هكذا تخلص حليم بن صادق من شعور الشك الذي ارتابه لحظة انفصلت قدماه عن الحافة، والذي كاد أن يفصم ظهر سعادته بأول وآخر قرار يتخذه حقيقة، ومثلما لم يستغرق الشك في رحلته إلى عقله أكثر من جزء من الثانية، فإن الطمأنينة لم تستغرق في رحلتها إلى قلبه أكثر من ذلك، وهو ما سيمنحه وقتا أكبر للاستمتاع بانتصاره. ولكن كان عليه أولا أن يسخر ما تبقى من الثانية الأولى في إيجاد طريقة ليقلب جسده ويسقط على قدميه.

«يسقط على رجليه»..

ربما كانت هذه رغبة والد عمار الطونبا أيضا حين كشف سره الخطير لزوجته، بعد أن حاصرته بالسؤال لمعرفة سبب منعه ابنه من الزواج من نيسة، وفي ظنه أن السنين الأربعين التي قضياها معا ستتشفع له عندها. يومها كان منهكا أقعده الزكام الفراش، وكانت هذه حاله مع الزكام كل عام، ومع تقدمه في السن كان المرض يشتد عليه من سنة إلى أخرى. جلست أم عمار على طرف السرير حيث كان زوجها مستلقيا يشاهد التلفاز وبادرته بالحديث: «ألا ترأف لحال ولدك وأنت تراه كالمجنون». تجاهلها كأنه لم يسمع شيئا، إلا أنها استرسلت: «أعرف أنها كانت طائشة في صغرها، ولكن هذه حال كل بنات اليوم، ولا ضير في ذلك ما دام ابنك

رضي بها، ثم إن الزواج يغير النساء..». قاطعها: «هذه لن تتغير وأنت امرأة وتعرفين ذلك، ثم ماذا سيقول الناس عن ولدك (صام عام وفطر على جرانة)([4])، كيفاش يا امرة تقبلين لولدك هذا العار»([5])

- لا عار لا والو([6])

قالت بصوت رخو لم تستطع السنين أن تنال من أنوثته، وهي تدلك قدميه بيديها وبين الحين والحين تمررهما على ساقيه بخفة وحنان ظاهرين. كانت تفعل ذلك وهي تنظر إليه آملة أن تلحظ رأفة ما تتسلل من عينيه، فلم يكن يشق عليها أكثر من أن ترى ولدها يتألم ولا تحاول أن تحمل عنه.

- لعل كل البنات يفعلن ما فعلته في صغرها ولكن حظها العاثر جعل فضيحتها على كل لسان..

قاطعها وهو يحاول أن يجلس في مكانه:

- ها قد قلتها «فضيحتها».. إنها أشهر حتى من بنات الهوى..

وارتفع صوته الجهوري المبحوح، حتى خالت زوجته أنه بلغ الحي المجاور

- قولي لي: من لا يعرفها أو لم يسمع باسمها في كل الحي.. «بوتوس.. بوتوس»، هل تعرفين ما يعني هذا اللقب؟

لم تتمالك أم عمار نفسها من الابتسام وهي تعرف بالطبع الإجابة، فقد كانت قصة لقبها أشهر من أن تجهلها وهي لم تخرج من منزلها إلا النزر القليل، فما بالها بالآخرين.

- انه لقب أطلقته على نفسها وهي لا تعلم، لم تترك ذكرا في الحي إلا وضاجعته، ولولا خوف الله لقلت حتى الكلاب عرفوا طعم فرجها، وحين سألها أحدهم أي رجل في الحي تفضل، أجابته بكل وقاحة «لا أفضل أحدا، أنا بوتوس». تقصد أنها للجميع (pour tous)، فلم تحسن نطقها وقالت بوتوس، ومن تلك اللحظة أصبح اسمها كما تعرفين..

سادت لحظة من الصمت جعلته يظن أنه تخلص من إلحاحها، في حين كانت أم عمار تفكر في سبيل آخر إلى قلب زوجها رأفة بولدها المجنون، وإذ ذاك أشعل أبو عمار سيجارة على غير عادته حين يكون في غرفة نومه أو حين يكون مزكوما، وأخذ

نفسا عميقا زفره بجهد، وقد سرحت عيناه مع فكره حتى تقاطعتا مع نظرات زوجته.. لم يكن المسكين يعلم أن رائحة سيجارته أيقظت في أم أولاده حدس المرأة الذي لا يخطئ أو على الأقل لم يكن يدرك أن سيجارته هذه ستكون آخر ما سيدخن في حياته.

-3-

غير بعيد من مكان حليم بن صادق، وصل إلى الكاليتوس مجنون جديد أضيف إلى قائمة مجانينها، كان يرتدي سروال جينز أزرق، تمزقت ركبتاه وحال لونه، متسخ ولكنه أقل قذارة مما كانت عليه الأرصفة التي زينتها أكياس قمامة سوداء حاصرتها بعض القطط بحثا عن الأكل، كانت جادة في بحثها إلى درجة أن مزقت بعض الأكياس وبعثرت محتوياتها على طول الرصيف، ولكنها سرعان ما انسحبت يائسة، بعد أن تأكدت من خلو الأكياس مما يصلح للأكل، وكأن الناس لم يعودوا يأكلون لحما أو سردينا، أو ربما أصبحوا يأكلون اللحم بعظمه والسردين بشوكه.. كان اليأس ظاهرا على القطط المسكينة، بحيث تركت الكثير من الأكياس حتى دون أن تمزقها..

رغم غرابة المنظر، إلا أن المجنون لم يهتم به، وراح ينظر إلى الرصيف باحثا عن مكان أقل قذارة يجلس فيه، وهو في بحثه هذا كان ينحني وكأنه يحاول أن يركع دون أن يركع حقيقة، فانسحب سرواله المشدود بسلك استعمله كحزام من على ظهره إلى نصف مؤخرته حتى ظهر نصفها، في مشهد لا يثير الضحك بقدر ما يثير الاشمئزاز، وما هي إلا لحظات حتى وجد مكانه، فنزع عنه قميصه الأحمر وجعله على الأرض ليجلس عليه، وهو عاري الصدر.. لقد كان مجنونا يفهم في النظافة على ما يبدو.

كانت هيئته مع الفارق تشبه ما آل إليه عمار الطونبا بعد أن عاوده اليأس وفقد كل رجاء في أن تشفق عليه أمه، مهما يكن هي مجرد امرأة طعنت في كرامتها بمدية اسمها «نيسة بوتوس»، تلك الشقراء النحيلة صاحبة النهدين العظيمين..

«قد تنسى المرأة أسباب الحب وإن تعاظمت لكنها لا تنسى أبدا أسباب الكره وإن كانت تافهة».. بهذا أجاب عمار الطونبا جاره حليم بن صادق حين حاول

الترويح عنه، وكأنه في ساعة سطله تحول إلى فيلسوف فهم أخيرا غاية الحياة، والأهم من ذلك أنه فهم استحالة زواجه من نيسة بوتوس تلك التي ضاجعت أباه..

- لماذا لا تحاول أن تنشغل بأخرى، فلا تنسي امرأة إلا امرأة أخرى

قال حليم يخاطب عمار الطونبا، وهما يجلسان على سلم العمارة جنبا لجنب، وكانت هذه عادتهما كلما التقيا مساء، حين يفرغ حليم من عمله ويفرغ الطونبا من فراغه.

- تقول ذلك وكأنك صاحب خبرة.. ثم قل لي هل ضاجعت نيسة.. لا أظن، أنت لست حيوانا مثلنا، مثل أبي. جربت الحب وحين فشلت انسحبت «راجل»([7]).. الله شحال نحسدك ساعات([8])..

ابتسم حليم وهو ينظر إلى عمار الطونبا وقد أشفق عليه، كان يبدو ضعيفا، شفافا.. تماما كما كان حليم منذ سنوات، ولكنه لم يكن ليخسر بضعفه شيئا عكس عمار الطونبا الذي بدأ يخسر خوف الناس منه، حتى مخنثو الحي لم يعودوا يخشونه، وهو الذي كان كلما مر بأحدهم جثا على ركبتيه وساعديه كما يفعل الكلب ويترجاه أن يقبل عليه. الآن لم يعد إلا خيال رجل، ذكرى رجل كان ذات يوم، الكيف والخمر أخذا بعض عقله وتحالفت نيسة بوتوس وأبوه على ما تبقى منه..

- أتعلم «استمر الطونبا في الحديث» لم يصدمني أبي رحمه الله بما فعل بقدر ما صدمتني أمي، فقد كنت أظنها لا تستطيع أن تؤذي حشرة..

ثم طأطأ رأسه بعد أن جعله بين يديه

- آه يا يما واش ديرتي([9]).. الله يغفر لك

- يغفر لها؟..

صاح به حليم مستغربا وأضاف:

- هي تبحث عن مصلحتك برفضها زواجك من فتاة تعلم مثلي أنها لا تصلح لك..

إلا أن عمار الطونبا استمر يمسك برأسه المملوءة بالكيف، الخمر ونيسة بوتوس..

كانت تلك آخر مرة يتحدثان فيها..

1 دارجة جزائرية معناها «ألا تخجل، لم يمر على وفاة أبيك ثلاثة أيام وتريد الزواج من تلك الساقطة..»

2 دارجة جزائرية معناها «لا يأكل ولدي من رغيف والده»
3 دارجة جزائرية معناها «انك تريد الزواج من عاهرة أبيك»
4 مثل شعبي جزائري يطلق على الرجل الذي يتحمل الصعاب ثم بلين في آخر المطاف ويقبل بما لا يبرر هذه الصعاب/ جرانة: ضفدع.
5 كيفاش: دارجة جزائرية معناها "كيف"
6 والو: دارجة جزائرية معناها «لاشيء»
7 راجل: رجل.
8 كم أحسدك مرات.
9 دارجة معناها «آه يا أماه.. ما الذي اقترفت؟»

-4-

لحظة افترش المجنون قميصه ليجلس عليه، كان حليم بن صادق واقفا على سطح العمارة ينظر إلى الأسفل، مبحلقا في لا شيء. وكأنه يحاول أن يصفي ذهنه مما ترسب فيه من ذكريات قد تجعله يعدل عن قراره، لكن يبدو أنه لم يجد بينها ما يحمله على الاستمرار في الحياة، ولعله بعد استذكار مفصل لم يجد من بينها إلا ما جعله متيقنا من قراره، فقد كان في الأربعين من العمر، وهو عمر إن لم يبعث فيه الرجل نبيا، فلا أقل من أن يكون قد كوّن أسرة ورأى أول ذريته، لذلك فقد حاول منذ ثماني سنوات أن يتزوج ويكوّن أسرة. وقتها كان محتفظا بشعر رأسه، معتنيا بهندامه وجسمه، لقد كان أقل بدانة، بل كان وسيما إلى حد ما. وسامة كان لها الفضل في تعرفه بفتاة انتهت للتو من دراستها الجامعية، كانت هذه نبيلة ميحانيك أول وآخر حب عرفه في حياته، والحقيقة أنها أول فتاة يفك بفضلها عقدته مع النساء، فرغم أنه كان حينذاك قد تجاوز الثلاثين، إلا أنه لم يسبق له التعرف على أي فتاة، ليس لأنه كان وقورا متدينا، بل لأنه كان عاجزا أن يتخطى عتبة «صباح الخير» في أي حديث، وكان في سعيه المستميت للتعرف والخروج مع أي فتاة، أن تخلى عن كل ما قد يشترطه شاب وسيم مثله في الفتاة التي يريدها، فشطب من قاموسه كلمات الجمال، الذكاء، القوام.. كما يشطب الأعمى كلمات النور، اللون... من قاموسه، ورغم تنازلاته المستمرة ظل حظه من النساء كحظ المومسات من الشرف، حتى صار يلعن يوم احتلامه مليون مرة في كل مرة.

المهم أنه التقى فتاة أحلامه آخر المطاف، أو تلك التي ظن أنها فتاة أحلامه، وكان وقتها يعمل محررا في جريدة أسبوعية تأخذ منه أكثر مما تعطيه، وكان بالكاد يأخذ أجرة الشهر مرة كل شهرين أو ثلاثة، لكنه لم يكن يتذمر بعد أن قضى خمس سنوات في البطالة، فعلى الأقل وجد ما يقضي فيه وقته ويجعله يتنمّر على بعض أصدقائه، فكانت لصفة الصحفي التي اكتسبها أثر على نفوسهم، حتى نسوا مع مرور الوقت لقبه «بن صادق» وصاروا كلما أرادوا تمييزه يقولون «حليم الجورناليست»([10]).

ورغم أنها لم تكن جميلة، ولم يكن لها من القوام إلا اسمه، إلا أن حليم بن صادق رأى في نبيلة ميحانيك فتاة أحلامه التي لابد أن تصبح زوجته، ولعلها من

فرط ما حدثها عن جمالها وقوامها وذكائها، صدقت أنها كذلك، ثم لم تلبث أن آمنت بما صدقته، فغيرت مشيتها الرزينة بمشية حسبت أنها ستظهر قوامها وجمال جسدها اللذين كثيرا ما حدثها عنهما حليم، وهكذا أصبحت تشترط في لباسها شرطين: أن يكون ضيقا وقصيرا، حتى صارت كلما مرت على بعضهم تخلف إثرها نقشا غريبا في أذهانهم، فيتبعونها بأعينهم في دهشة وفي صمت كذلك، وجميعهم يحاول فك الشيفرة التي خلفتها في أذهانهم لحظة ابتلاهم البصر بمشهدها، وبعد دقيقة أو دقيقتين من الصمت والدهشة، ينفجرون ضحكا.. ضحك ممزوج بتعاليق على شاكلة «هل يمكن أن تكون هذه أنثى؟».

الغالب أنهم كانوا يبالغون في تبشيعها، فرغم أنها كانت لا تملك صدرا ولا دبرا ولا شعرا مسترسلا، ولا قواما يخرجها من خانة الرجال أو يدخلها إلى خانة الإناث، إلا أنها كانت في الغالب أنثى بجنسها، وإلا كيف حدث وعرفت أمها أنها أنثى؟، أو كيف استطاع أن يميزها حليم بن صادق ويحبها أيضا؟..

إلا أنها رغم ذلك، ورغم بروز فكها العلوي عن فكها السفلي، كانت تملك أسنانا بيضاء جيدة، وأنفا جميلا وعينين عسليتين، وهو ما يؤكد أن في ظلم الطبيعة بعض العدل.

ومن عدلها أن المشيئة جعلتها تلتقي بحليم بن صادق، وجعلت حليم يقع في حبها ويقرر الزواج منها، رغم ما لم يكن فيها، لأنه اكتفى في الغالب بما فيها من أنف وعينين وأسنان بيضاء...

-5-

فكر حليم بن صادق وهو يتهاوى إلى الأرض من علو خمسة عشر طابقا أن سقوطه على وجهه سيجعل من جسده جثة مشوهة على أقل تقدير، أو لعلها ستكون جثة بلا وجه.

في البداية كره الفكرة، ولكنه سرعان ما أدرك مدى غرائبيتها، خاصة وأنه لم يكن يحمل حينها أوراق هويته، ولا أي شيء من شأنه أن يرشد المحققين لاحقا إليه، فأعجبته فكرة أن يصبح انتحاره لغزا بوليسيا يجعل المحققين يتساءلون من يكون، ومع أنه كان مدركا أن اكتشاف هويته لن يستغرق في أطول الأحوال أكثر من

يومين، إلا أنه كان سعيدا بما ستؤول إليه الأمور، لقد ضمن أخيرا أن الصحافة ستتكلم عنه ثلاث مرات: يوم ينتحر، يوم تكتشف هويته ويوم تصل رسالته التي بين فيها أسباب انتحاره، لذلك أمضى ما تبقى من الثانية الأولى من الوقت الذي سيستغرقه الارتطام منتشيا بسعادة لا توصف، بعد أن عدل عن محاولة قلب جسده ليسقط على قدميه.

على الحدود الفاصلة بين الثانية الأولى والثانية من زمن الارتطام، أحب حليم بن صادق أن يتأكد من المسافة المتبقية لبداية رحلته إلى السماء، فحاول أن يدير رأسه بشكل يمكنه من الرؤية، إلا أنه شعر بضغط شديد مصدره من أسفل يمنعه من الاستدارة، كان يعلم أن لذلك علاقة بالفيزياء، لكنه لم يعمل- كما اعتاد في هكذا مناسبات- على استجلاء حقيقة ما يمنعه من الاستدارة أو مصدر هذا الضغط القادم من أسفل، فرغم تأكده مما أصاب ثوانيه العشر من استبطاء زمني خارق، فضل أن لا يتمادى في البحث عن ماهية القوة الضاغطة على جسده، واكتفى بمد رقبته وثنيها بدرجة أو بدرجتين، ما مكنه من رؤية جزء من ساحة الارتطام، دون أن يتمكن من رؤية كل الساحة أو حتى مكان ارتطامه بالأرض على وجه التحديد.

ومن زاوية رؤيته تلك، رأى نصف الطريق الفاصلة بين عمارته الشامخة ومبان سكنية أشبه ما تكون بعلب إسمنتية وضعت كيفما شاء، سكنات يعتقد أصحابها أنها فيلات وتعتبرها السلطات بيوتا غير شرعية، أما هو فكان يراها مجرد علب إسمنتية قابلة للسكن، ثم رأى رصيفا بمحاذاة هذه السكنات وأشخاصا يقفون عليه، يرفعون رؤوسهم وكأنهم ينظرون إلى شيء في الأعلى.. بالطبع كانوا ينظرون إليه، أما هو فقد تساءل في حمق «إلامَ ينظرون؟»، ثم ما لبث أن ابتسم حين أدرك مدى حمق سؤاله، وغرق في نشوة الاهتمام الذي أصبح يصب عليه، فقد أصبح كنجم شهير يملك جمهورا يتحرّق شوقا لرؤيته، إلا أنه على خلاف كل النجوم، لن يقف أمام جمهوره بل سيسقط عليهم.

ومع أن نشوته بالاهتمام كانت تتزايد مع ازدياد عدد الواقفين على الرصيف والمحتلين جزء من الطريق، إلا أنها لم تكتمل حين لاحظ رجلا يجلس خلفهم غير مهتم، بدا له أنه كان جالسا مادا رجليه، وحين ركز نظره جيدا أدرك أنه عاري الصدر بدون قميص، فشعر ببعض الخيبة، خيبة لم تدم طويلا هي الأخرى وهو

يرى تزايد المتفرجين الذين ملئوا عينيه وقلبه، حتى صار لا يرى ذاك الجالس بدون قميص.

رغم ما كان يثيره هذا الاهتمام الجماهيري من نشوة في نفسه، إلا أن حليم بن صادق لم يعد قادرا على الاستمرار في ثني رقبته، فقد كانت القوة الضاغطة تزداد مع الوقت، ومعها يزداد الألم الذي شعر به وهو يحاول استعادة وضعيته الأولى، ومن سوء حظه أن آخر ما رآه وهو يشيح بنظره كان الرجل الجالس دون قميص، لقد كان كحبة زيتون على شريحة بيتزا، لا يستطيع أحد إلا أن يلاحظها.

كان الجالس بدون قميص فعلا كحبة زيتون سوداء بسبب شعره الأسود المسترسل في الطول وكأنه لم يحلق رأسه منذ سنوات، بلحية كثيفة طويلة مثل شعره لا يكف عن حكها، وكأن تحتها تختبئ كائنات مما قد نتصور ومما لا نتصور، وكان يستعين في ذلك بأظافر طويلة مائلة إلى الزرقة برؤوس سوداء، اكتسبت لونها مما تجمع تحتها من وسخ وأتربة، إلا أنها بالكاد تتميز عن أصابعه الدقيقة وكفيه الأسمرين من حيث اللون، فقد داخلت سمرتهما ألوان غريبة، صنعتها أيام قضاها الرجل بعيدا عن الماء، أو أيام قضاها الماء بعيدا عنه، منذ آخر زخة مطر اجتاحت العاصمة.

رغم ذلك لم تكن أصابعه ولا حتى أظافره تثير الاشمئزاز أكثر من كفيه اللتين أصبح ظاهرهما كباطنهما، سواد يدفعه السواد، ولكن سواد ظاهر كفيه كان أكثر عتمة، بسبب الشعر الذي غطى مساحتها، فلا تكاد تميز لون الجلد إلا من خلال بقع عفا عنها الشعر المستمر في زحفه على ذراعيه المفتولتين، ومنهما إلى كتفيه العريضين ككتفي سباح محترف، كذلك فعل بصدره وببطنه وبظهره وبباقي جسده، حتى خلف الرجل الجالس بدون قميص ككبة صوف محترقة غمست في ماء الفحم.

كان هذا المجنون الذي دخل الكاليتوس على حين غرة يظن أنه في مكان غير الكاليتوس، ففي المكان المعروف بلوتسمان تنتصب عمارات صفراء مستطيلة الطول كحاويات بدون ميناء، تقع خلف عمارات عدل الشاهقة، دون أن تستطيع هذه أن تمنع عنها النظر، وهو إن جلس بعيدا عنها فقد كان يحاول أن يستذكر مكان المسجد الذي أواه أكثر من سنتين، كان المسكين يظن أنه في باش جراح.

ففي صباح ذلك اليوم وبالتحديد في الثلاثين من شهر ماي عام 2008، تأكد

خبر حصول اتحاد الحراش على نقاط مقابلة سابقة بسبب خطأ في تشكيلة الفريق الخصم، وكان هذا الفريق من النوادي العاصمية العريقة، سقط إلى القسم الثاني من الدوري الجزائري منذ سبع سنوات، لذلك فقد أحدث هذا الخبر فرحا عظيما في نفوس أنصار الحراش، فخرجوا إلى الشوارع مهللين، رافعين راياتهم الصفراء والسوداء في مسيرة تملأ الأعين بحشدها والقلوب بما أصبح يمثله أنصار الحراش من رعب وخوف يعلمه الجميع، وكان بعضهم إذ ذاك في باش جراح ينتظرون أن يكتمل عددهم ليسيروا إلى الحراش سالكين الطريق العام المار بجنان مبروك وبيلام، ومن ثمة المنطقة المعروفة بالطاحونة المتواجدة على بعد أمتار قليلة من ساحة الحراش مكان التقاء الوفود الحراشية.

وبين هؤلاء وجد الجالس بدون قميص نفسه. وكان هؤلاء قد عرفوه فرفعوه على أكتافهم وهم يهللون «السيس كانز..السيس كانز». كان هذا هو الاسم الذي عرف به بين سكان باش جراح.

وأما سبب تسميتهم له بهذا الاسم، فيعود إلى يوم قدومه إلى باش جراح، فكان كلما سأله أحدهم عن اسمه، يمد إليه يده وكأنه يطلب صدقة، وهو يقول «السيس كانز» حتى أصبح اسمه لاحقا .

والحقيقة أن «السيس كانز» هو اسم تعارف عليه المسطولون وأصحاب الكيف، يطلقونه على أحد أنواع الأقراص المهلوسة، وقد استمدوا هذا الاسم من الأرقام المكتوبة على القرص (6: السيس و 15: كانز).

المهم أن السيس كانز وجد نفسه على الأكتاف يحمل حملا حتى بلغ الحراش، وهناك أطلقت الأيادي سراحه، ونسيه حاملوه في غمرة الأهازيج والرقصات التي ميزت الاحتفال العظيم. فوجد السيس كانز نفسه هائما على وجهه، فقد كانت هذه أول مرة تطأ فيها قدماه الحراش.

وبينما هو كذلك، أخذ يعترض كل من يمر قربه وليس على لسانه إلا «الكاليتوس.. الكاليتوس» ولا أحد يهتم لأمره ليفهم منه شيئا. وظل على ما هو عليه حتى أرشده أحدهم وجعله يصعد حافلة متوجهة إلى الكاليتوس، وفي ظنه أن السيس كانز يقصد هذه المدينة المتريفة الواقعة على حدود البليدة. رغم أنه كان يقصد كاليتوس باش جراح.

حين بلغ حليم العمارة التي سيلقي بنفسه منها، رفع رأسه فلم يلحظ إلا شققا غير مشغولة، فقال يطمئن نفسه:

- جيد.. الخطة تسير على ما يرام

هذا لأن اختياره لهذه العمارة لم يكن بالصدفة، إذ لم يقع عليها اختياره إلا بعد أن تأكد أنها شبه خالية من السكان، وهكذا إذا أراد بلوغ سطحها فلن يلاحظه أحد، وهو شرط ضروري لنجاح خطته، إلا أنه لم يكن يعلم بعد أن التفاصيل الصغيرة جدا هي التي قد تفسد خطته، وهو ما أدركه حين بلغ باب المصعد ووجد عليه لافتة مكتوبة بالفرنسية:

il est porté a la connaissance de l'ensemble des colocataires que l'ascenseur est hors service pour des raisons de maintenance

ما إن انتهى من قراءة اللافتة حتى كاد يجن، فكيف يعقل أن يصعد خمسة عشرة طابقا على قدميه، وهو البدين المدخن الذي لم يمارس رياضة قط، كان هذا سيقتله حتما..

فكرة الموت تعبا أعجبته، ومنحته بعض الشجاعة للصعود، وإذ هم بذلك أخرج سيجارة من نوع «مارلبورو» وأشعلها، لم تكن هذه ماركاه المفضلة ولا حتى ما كان يدخنه بين الحين والحين، لكنه في هذا اليوم قرر أن يدلل نفسه بعض الشيء.

لا أحد يمكنه أن يجزم فيما كان حليم بن صادق يفكر وهو يصعد درج العمارة، ولكنه على ما يبدو كان أمرا مهما، بحيث كلفه ذلك ثلاث سجائر قبل حتى أن يبلغ الطابق الخامس، وإذ هو على مشارف الطابق السادس سمع صوتا كالضجيج مصدره من أسفل.

حاول استراق السمع ولكنه لم يحظ إلا بصوت باب يضرب وبصراخ يشارك في إذكائه صوتان، رجل و امرأة.

كان صوت المرأة أكثر استحواذا على الشجار من صوت الرجل الذي بدا هادئا ومتقطعا، قي حين غلب على صوت المرأة البكاء حتى لم يعد أكثر من حشرجة بالكاد

يمكن فهمها.

وإذ هو على هذه الحال، باغتته نفسه بسؤال غريب، سرعان ما تجاهله، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة المذهول وفمه يتمتم: «لا يمكن.. مستحيل»، ثم هم بصعود الطابق السادس.

«لا يمكن.. مستحيل».. هكذا تمتم أيضا عمار الطونبا وهو يسترق السمع إلى حديث أمه وشقيقتها، كان حديثا ليليا غاية في الخطورة، ولكنهما اطمأنتا للظلمة ولشغور البيت، فلم يكن ثمة غيرهما وعمار الطونبا النائم في غرفته، لم يكن نائما بل مصروعا كعادته، يمضي كل يومه في التسكع وتدخين الكيف، وجزء من الليل يقضيه نصف رجل مع نيسة بوتوس بغرفتها في غفلة عن أمها، فكانت كلما آوت والدتها إلى الفراش واطمأنت نيسة إلى غرقها في النوم، تفتح نافذتها المطلة على مسجد أبو عبيدة بن الجراح، وتلقي بشيء على عمار الذي من عادته ساعتها، أن يجالس لاعبي الدامة والدومين([11]) بجوار المسجد، فيصعد إليها. تدخله خلسة إلى الشقة ومن ثم إلى غرفتها.

كانت وحيدة أمها المصابة بالبار كينسون والسكري، وكانت المسكينة طيلة النهار نصف مستيقظة ونصف نائمة، وما يكاد يؤَذن للمغرب حتى تنتهي ساعات يقظتها، وتخر مصروعة لا تدري بشيء. وتحل ساعات نيسة بوتوس الحمراء.

في أول أيامهما، كانت بوتوس تتحرق شوقا للقاء عمار، كان يدخل خلسة ويسحب نفسه كالشبح إلى غرفتها، وما أن تلحق به نيسة حتى يأخذها كالوحش، يشدها من شعرها السنبلي ويجرها جرا، وهي تتأوه حينا وتتأحح أحيانا أكثر. كانت تحب وحشيته تلك، بل وتحثه عليها»هذا واش قدرت أدير يالطحان..» ([12])،» أنت حلوف.. كلب..فايح([13])..»، فيلطمها بعنف وأحيانا يركلها، فلا تفعل إلا أن تتبسم، فيستشيط غضبه، جادا، يبصقها.. ولكنها تستمر في شتمه وتصغيره ولا تكف عن ذلك إلا حين يأخذها كما تِؤخذ الكلبة..»إيه أنا كلبة» كانت تقول له في نشوة العاهرة..»نحب كي تردني الكلبة انتاعك»([14]).

مرة سألها:

- ماذا يعجبك في الضرب، ألا تستمتعين من دون ضرب؟

ابتسمت في خضوع:

- حتى أشعر برجولتك

ضحك وضحكت معه، وأضافت:

- ربما لهذا أحب أن تنيكني من خلف[15]، أشعر بك وبألم لا يطاق، ولكنني لا أستغني عن الألم..

ضحكت وضحك بفتور

- ولكنني أنفر من ذلك، فذلك الثقب وجد لتخرج الأشياء منه لا لتدخل إليه...

وأضاف:

- حين أفعل ذلك أشعر أنني لوطي وأنت تعلمين كم أمقتهم وأمقت المخنثين

قهقهت وهي تربت على صدره:

- أعلم.. أعلم بدليل أخبارك معهم..لا تنسى راني بنت الكانون

قال محاولا أن يتدارك:

- الله غالب.. إذا لم أفعل ذهبت هيبتي معهم، فهؤلاء المخنثين لا يفهمون إلا بالزب[16]

ابتسمت بلؤم وهي تمسك بذكره:

- أنا أيضا أريدك أن تجعلني أفهم..مثلهم أو..أكثر

هكذا كان حال عمار في أول أيامه مع نيسة، لذلك اشتهر في الحي باسم الطونبا، الجرذ، يدخل خلسة ويخرج خلسة، تماما كالجرذ، ولكنه قبل دخوله أسد في الحي يخافه الكبير والصغير، وبعد أن يدخل كالوحش المفترس.. علّم نيسة معنى الافتراس، أن تكون ضحية تنهش برغبتها، بل علّمها كيف تكون أنثى وكيف تصبح عاهرة. هكذا كان حاله بالأمس القريب، أما اليوم فلم يعد إلا ذكرى رجل.. نصف رجل بالتفاؤل، كثرة الكيف والتدخين والخمر والسهر المستمر جعلته كأي مخنث في الحي، لا يكاد ذكره ينتصب حتى يغمى عليه، حتى نيسة حبيبته لم تعد تأبه له.. يدخل غرفتها، فتستلقي على ظهرها وتفرج ساقيها وهي تنظر إليه باشمئزاز.. تنتظره كما تفعل العاهرة مع أي زبون، وحين يطول انتظارها تجلده بجملتها الرخيصة «واش ما كان والو اليوم»[17] فينكمش على نفسه أو ينصرف إلى

سيجارته، صديقته اللدود.

في تلك الليلة عاد من عندها، يجر ما تبقى منه حتى بلغ فراشه ونام، وحين استفاق سمع وشوشة. تتبع الصوت حتى بلغ الصالة، حيث كانت أمه وخالته تتهامسان، بدا له الأمر غريبا، لم تتهامسان؟، الشقة شاغرة، أبوه توفي وشقيقاه في السجن، أما هو فنصفه ميت ونصفه مسجون، لم تتهامسان؟، ألح عليه السؤال ولم يجد إلا أن يسترق السمع..

- إلى متى سأحتمل.. كلما نظرت في عيني عمار أشعر بضرورة مصارحته بالحقيقة. قالت أم عمار

- أي حقيقة هذه.. كلب ومات.. اليوم هو بين يدي الله، يغفر له أو يعاقبه، أما أنت فمازلت حية بين أولادك..غير هدوك راهم همّ.. الله يكون في عونك، استغفري الله وانساي.. راه ربي يشوف([18])

- ولكن بأي وجه سألقاه، بيني وبين الموت خطوة وغدا بأي وجه ألقى الله؟..

- استغفري الله وانسي، ولو فكرت جيدا لوجدت أنك لم تفعلي شيئا، فقد يكون مات قبل أن تجهزي عليه

- لكني أنا من ألقى عليه السندرية.. أنا من ضربته على رأسه بها حتى وإن لم أقصد، وحين أغمي عليه، أنا من أجهز عليه، لم أكن أراه ساعتها زوجي وأب أولادي، نسيت أربعين سنة من الزواج، نسيت حتى خيانته لي كل تلك السنين، لم أكن أسمع إلا اعترافه..آه لو أنني لم أعرف، لو أنه لم يشعل تلك السيجارة في غرفتنا لما شككت فيه، لما ألححت عليه حتى صعقني بحقيقة علاقته بنيسة الكلبة، ولكنه اعترف، ضربته بالسندرية التي كانت على حجره، ثم رأيته يغمى عليه، لم أفكر ساعتها بحماقتي الأولى حين ضربته بالسندرية، وثبت عليه بالوسادة ولم أشعر بنفسي إلا وقد مات..يا لله واش درت...

تسمّر عمار الطونبا في مكانه من أثر الصدمة، وأي صدمة، أمه الحنون، البشوش، الملتزمة، الحاجة التي تعرف الله، قتلت أباه..لم يشعر بنفسه إلا خارجا، مهرولا..

تمتم حليم بن صادق: «لا يمكن.. مستحيل». ثم هم بصعود الطابق السادس وهو يفكر في المرحلة المقبلة.

على بعد ثلاثة طوابق إلى الأسفل، سادت لحظة هدوء غافلت شجار الصوتين، حاول الرجل استغلالها ليقلل من حدة الصراخ:

- تعرفين أنني أحبك، وسأبقى أحبك دائما

- وفيم يفيدني حبك بعد ما قلته لي.

قالت المرأة ذلك بصوت اختفت منه بحة البكاء، رغم ما خلفه فيه الصراخ من حشرجة

- يمكنك أن تفهمي أنني لا أستطيع مخالفة أمي فيك

قال الرجل، محاولا جهده ألا ينظر إليها مباشرة. أما هي فكانت واقفة أمام باب الشقة. كانت ترتدي جلابية مغربية حمراء بقلنسوة، تضع على جيدها سلسلة ذات نقش بربري من الفضة أو من معدن يشبه الفضة.

- أنت لا تستطيع مخالفة أمك، أما أنا فقد خالفت فيك الجميع

قالت بحسرة، ثم استرسلت في الكلام دون أن تنتظر منه جوابا، وهي تمسح بطرف جلابيتها ما تبقى من دموع تجمعت على طرفي عينيها:

- ماعليش([19]) ربي وكيلك.. اذهب الآن وأحضر السيارة

حاول الرجل أن يقول شيئا، ولكنه في آخر المطاف استسلم لتردده ونزل دون أن ينبس بكلمة، فيما دخلت المرأة الشقة، ضاربة بابها بقوة.

أثناء ذلك كان حليم بن صادق قد بلغ الطابق السابع، عرقا، لاهثا، وعلى وجهه ابتسامة سعادة غريبة، لا يخطر لأحد أن ترتسم على وجه رجل مقبل على الموت، ولكن يمكن تصورها دون عناء على وجه رجل يعرف بالتدقيق لحظة انتهاء أيام شقائه، وهي ذات الابتسامة التي ارتسمت على وجهه مرة أخرى لحظة تملص من التفكير في الرجل الجالس بدون قميص، ذلك الشبيه بحبة زيتون سوداء.

لحظتها سمع هاتفه النقال يرن في جيبه وهو على بعد ثوان من الارتطام.

بدا الأمر غريبا أن يرن هاتفه في السماء، فعلى الأرجح هذه أول مرة يرن فيها هاتف أحدهم من هذا العلو.

كان هذا ما جعله يتملص من التفكير في الرجل دون قميص.

- هل علي أن أجيب؟

قال في نفسه قبل أن يستسلم للضحك، بعد أن أدرك طرافة سؤاله، في حين بقي الهاتف يرن مرات ومرات، دون أن يحاول حليم إسكاته على الأقل.

في الطرف الآخر كان أبوه عمي خليفة يمسك بهاتفه النقال، جالسا في المقعد الأمامي لشاحنة «بان» زرقاء، محملة بالأثاث والرزم والحقائب المختلفة.

- ألم يجبك بعد؟

سأله السائق دون أن يبعد ناظريه عن الطريق.

- لا أدري... ربما نسي هاتفه في مكان ما

- حتما، فليس من عادة حليم أن يختفي هكذا

قال السائق محاولا طمأنة عمي خليفة الذي أعاد الهاتف إلى الجيب الداخلي لجاكت بدلته الرمادية، وهو يفكر في شيء ما

- أتعلم. «قال السائق». رغم أن حليم ولدك إلا أنني أعرف ابن خالتي أكثر منك، أغلب الظن أنه فقد هاتفه فقرر انتظارنا في الشقة الجديدة.

ابتسم عمي خليفة كأنه اقتنع بكلام السائق، ولكنه في قرار نفسه كان متأكدا أن حليم يحضر لشيء ما، وما اختفاؤه المفاجئ في يوم رحيل العائلة إلى المنزل الجديد إلا دليل على ذلك.

- إذا كان الأمر كما تقول، فما الذي منعه من مهاتفتي؟

- ما أعرفه عنه، أنه لم يحسن قط حفظ الأرقام، فهو رغم ذكائه يعيش بلا ذاكرة

أجاب السائق وهو يظن أنه بملاحظته هذه قد يضفي على الجو بعضا من خفة الروح، إلا أن عمي خليفة آثر الصمت، وهو ينظر من زجاج الشاحنة الأمامي، وفي رأسه سؤال واحد لا غير " أين يمكن أن يكون حليم قد اختفى؟"..

كان من الطريف أن تعمل المشيئة على إجابته بمشهد حليم يتهاوى من علو خمسة عشر طابقا، على بعد عشرين مترا فقط من مكان شاحنة البان الزرقاء، ولكنه كان مشهدا صامتا لم تتسن له مشاهدته فعلا، لذلك بقي عمي خليفة يعتقد ألا إجابة عن سؤاله في الوقت الراهن، عكس الواقفين قبالة العمارة التي ألقى حليم بن

صادق بنفسه منها.

بين هؤلاء رجل في الأربعينات يرتدي قميص صلاة أبيض متسخا وصندلا من الجلد، كان كغيره واقفا على بعد ثلاثة أمتار من مكان جلوس السيس كانز ينتظر لحظة سقوط حليم وهو يمسح قميصه من القذارة التي سودت لونه وكادت تحول المسك الذي وضعه للصلاة إلى ذكرى بالكاد يذكرها، رغم أنها لم تكن أقدم من خمس دقائق، حين كان يسير على الرصيف قبالة العمارة التي ألقى حليم بنفسه منها، حينها كان قميصه أنصع بياضا من ثلوج جرجرة في عز الشتاء، وقد خرج للتو من المسجد، بعد صلاة الجمعة، وكعادة من يخرج من الصلاة، كان يسارع الوقت والخطى للوصول إلى أحد مقاهي لوتسمان ليرتشف فنجان قهوة ويدخن سيجارة يستدرك بهما ما فاته من متعة الإدمان.

بين رغبته الملحة في الوصول إلى المقهى بأقصى سرعة، وحقيقة وجود المقهى على مرمى بصره، انصرف انتباه الرجل ذي القميص الأبيض إلى غير الرصيف الذي اعتاد المشي عليه منذ سنوات، قادما من بيته أو من المسجد في اتجاه المقهى، لذلك فلم يكن من الضروري أن ينظر إلى موضع قدميه، ما دامت سنين المداومة قد حفّظت قدميه تضاريس الرصيف الذي تطآنه.

هكذا ظن الرجل ذو القميص الأبيض..

إلا أنه هذه المرة، حين وجد نفسه أرضا، بعد أن تعثرت قدماه بشيء ما، أدرك الخطأ الفادح الذي ارتكبه، حين وثق بالرصيف، في وطن ما أيسر فيه أن يصبح الرصيف طريقا والطريق رصيفا.

هكذا اكتشف بسقوطه أن التضاريس التي حفظها عبر سنين تغيرت في لحظة أو لحظتين، فقد كان يكفي لتغيرها أن تعبث بعض القطط الجائعة بأكياس القمامة، وتوزع ما فيها على الرصيف الذي اعتاد الرجل ذو القميص الأبيض أن يسير عليه.

لحظة سقوط الرجل ذي القميص الأبيض أرضا، سمع أصواتا تتنافس من يصل أولا إلى مسمعيه "يا ستار.. يا ستار".

لم يلحظ يدا تمتد إليه لمساعدته، إلا بعد أن تلطخ قميصه الأبيض الأميري بكل أنواع الزبالة المتناثرة على الرصيف، وقد حاصرت رائحتها عطره الذي سرعان ما استسلم للحصار.

إلا أنه حين حاول الوقوف على رجليه مستعينا بساعده الأيسر وبيد ممدودة إليه، رأى بطرف عينه شيئا مخيفا.. "يا ألله أنظروا"، قال صارخا، وأشار إلى أعلى.. كان ذلك حليم بن صادق يقف على حافة السطح قبل خمس دقائق من السقوط.

كان الرجل ذو القميص الأبيض أول المشاهدين لعملية انتحار حليم بن صادق الذي ما كان ليقدم عليها لو أمعن أكثر في صوت المرأة الذي سمعه وهو يصعد درج العمارة، بعد أن تسرع في إجابة نفسه بجملته السخيفة " لا يمكن.. مستحيل"..

كان مركزا على انتحاره إلى درجة أنه غالط نفسه حين سمع صوت نبيلة ميحانيك تتشاجر مع ابن خالتها وعشيقها بدر الدين أوراري في الطابق الثاني من العمارة، بعد أن قرر بدر الدين قطع علاقته بها بعد ست سنوات ونيف، علاقة كانت نبيلة تتوقع لها النجاح بعد أن ضحت في سبيلها بزواجها من حليم.

حدث ذلك قبل عشرين يوما عن موعد زفافها، حين دخل حليم مضطرا إلى حانة فندق ماتاراس بتيبازة، أين كان على موعد مع مدير المركب السياحي الذي كان من المفروض أن يسلمه شيكا بقيمة الإشهار الذي نشره حليم في الجريدة التي يعمل فيها كمندوب إشهار بعد أن تخلى عن منصبه كمحرر ثقافي، وقد وفر له ذلك الكثير من المال والوقت لإتمام مراسيم العرس وما يقتضيه من مصاريف كادت أن تكون خيالية.

كانت الساعة الثانية زوالا حين دخل الحانة بتردد من يدخل حانة أول مرة، وبالفعل فقد كانت هذه أول مرة يدخل فيها بارا. تقدم بثقة نحو البارمان وسأله هامسا:

- هل تقدمون القهوة هنا؟

ابتسم البارمان وكان شابا وسيما في الثلاثين، يرتدي قميصا أبيضا وسروالا أسود فَصّلا جسده المتراوح بين النحول والاستقامة:

- بالطبع سيدي.

ثم انحنى على الكنتوار وكأنه يريد أن يخبره بسر:

- القهوة هنا أغلى بكثير مما هي عليه في المقهى المجاور.

قال ذلك متكلفا ابتسامة أبعد ما تكون عن الصدق.

فهم حليم ما عناه البارمان، ولكنه تظاهر بالبلادة حتى لا يفقد أعصابه، وهو على بعد دقائق عن موعد المدير.

- لا بأس في ذلك، فأنا على موعد مع أحدهم هنا.

ثم أضاف:

- سأجلس هناك

وأشار إلى طاولة بمقعدين على مقربة من مدخل الحانة.

كانت الحانة مكتظة بزبائن من مختلف الأعمار، ذكورا وإناثا، ولم يكن هنالك من مكان شاغر غير الطاولة التي أشار إليها حليم، ولولا ذلك لحاول البارمان أن يجلسه في أي مكان آخر يضمن فيه عدم هروبه من دفع ثمن القهوة التي سيشربها، فلم يكن يبدو على حليم أنه من الزبائن الموثوق بهم.. هكذا فكر البارمان وهو يتبع حليم بن صادق بناظريه حتى بلغ الطاولة وجلس.

لم تمض عشر دقائق حتى قدم المدير ومعه الشيك.

قال وهو يصافح حليم مبتسما:

- أتمنى ألا أكون أطلت عليك

وما كاد يجلس حتى وقف النادل بين يديه يرغب في خدمته، فهمس له المدير: «كالعادة»، فأشار النادل إلى البارمان بيده واتجه مباشرة صوب البار، حيث كان النادل قد حضر طلبية المدير في طرفة عين، وهو يقف فاغرا فاه من دهشة ما رأى: شاب في الثلاثين، سيء الحلاقة والرائحة والهندام، يجالس سيده المدير.

أثناء ذلك بادر المدير بالكلام:

- أرأيت.. أنا عند وعدي

قال وهو يخرج من الجيب الداخلي لجاكيته الكشمير البنية صك حليم.

- وأنا أيضا سأكون عند وعدي

علق حليم وفي عينيه ما يوحي أنه فهم قصد المدير، ثم أضاف:

- بعد أسبوع سأحضر لك ما اتفقنا عليه، عشرين بالمائة من مبلغ الشيك

- لا تتعب نفسك بالحضور إلى هنا، من الأفضل أن نلتقي في العاصمة، فلا أحب أن يرتاب أحد في أمرنا

- مثلما تريد

قال حليم وقد رسم على وجهه ابتسامة متكلفة ولكنها أصدق من ابتسامة البارمان.

أضاف:

- كدت أنسى، يبلغك مدير الجريدة تحياته ورغبته في التعرف عليك

- أبلغه تحياتي أيضا، أما بالنسبة للتعرف بي فأنت تعرف إجابتي سلفا

هز حليم رأسه وقد فهم قصد المدير.

- ولكن.. «عقب المدير».. ما هي عمولتك من كل هذا؟

ضحك حليم وهو يهم بالمغادرة وقد مد يده ليصافحه:

- لا شيء غير راحة مديري..

- هو ذاك.. هو ذاك

قال المدير ضاحكا، دون أن يتكلف عناء الوقوف.

ثم لوح للنادل فحضر مسرعا وحليم لم يغادر بعد:

- حساب كأسي سيدفعه صاحبي.

مشيرا بعينيه إلى حليم، وحليم لا يفعل إلا الابتسام.

ما إن دفع حليم بن صادق الحساب حتى اتجه مباشرة صوب باب الحانة قاصدا حظيرة السيارات، حيث كان سائق الجريدة في انتظاره. بعد خطوات قليلة توقف وعاد أدراجه إلى الحانة، فقد تذكر طريقا مختصرا يقود إلى الحظيرة يمر عبر الباب الخلفي للحانة المقابل للشاطئ.

دخل حليم الحانة مرة أخرى، ولكنه هذه المرة لم يكن يبدو كمن يدخل الحانة لأول مرة، فما أن مر بالبار حتى لوح له البارمان فيما يشبه التحية، وقد ارتسمت على محياه ابتسامة أكثر صدقا من سابقتها، أو على الأقل كانت أقل نفاقا.

كان الباب الخلفي يولج إلى شرفة واسعة، تستعمل كصالة ثانية للحانة تطل على شاطئ ماتاراس، وتسمح برؤية مشهد رائع لجبل شينوة جنوبا ومركب السات شمالا، لذلك وجد حليم نفسه مضطرا لعبور شرفة الحانة المليئة بالزبائن هي الأخرى.

«أخيرا تحقق الحلم». قال لنفسه وهو يتحسس الصك في جيب سترته بأصابعه، فقد كانت عمولته عشرة بالمائة من أصل مائتي مليون قيمة الصك، الآن لم يعد يفصله عن تحقيق سعادته إلا بعض الكيلومترات الفاصلة بين العاصمة وتيبازة..

حين بلغ نهاية الشرفة، توقف لحظة ليشعل سيجارة. بحث في جيبي سترته، سرواله ولكنه لم يجد ولاعته، كان بلا ريب قد أضاعها في مكان ما.

وإذ ذاك توقف يجول بناظريه لعله يرى أحدهم يدخن.

«يا ألله.. هل...». صرخ في داخله وهو يرى...

شعر برعشة تعتريه، توقفت الأصوات فجأة من التدفق في أذنيه، لم يعد يرى إلا طاولة واحدة في شرفة الحانة رغم وجود غيرها، اختفت الوجوه إلا وجه واحد، انمحت الأجساد من شاشة نظره إلا جسد واحد..

توقف وهو منهك الإرادة أمام طاولة زينتها قاروريتا بيرة وفنجان بن وعلبة سجائر من نوع غولواز:

- هل من خدمة أقدمها لك؟

قال الشاب الجالس مبتسما، معتقدا أنه يكلم شحاذا دخل المركب السياحي مختلسا.

لم ينبس حليم بكلمة، وهو يحدق في الفتاة التي ترافق الشاب

- أريد أن أشعل سيجارتي

قال ذلك بصوت يشبه صوت المحتضر.

أشعل سيجارته بيدين ترتعشان وهو ما زال محدقا في الفتاة التي تغير لون وجهها حين رأته حتى اسود، ثم انصرف وبالكاد تحمله قدماه.

- هل تعرفينه؟

قال الشاب يسأل فتاته، في حين ظلت مذهولة كأنها رأت ميتا عاد إلى الحياة

- نبيلة. «تمتم الشاب». ما بك؟.. هل تعرفينه

لم تقل شيئا وهي تشيع حليم بنظرها حتى اختفت قفاه..

حين بلغ السيارة أعطى السائق الصك ليوصله إلى المدير، ثم طلب منه أن ينصرف لأنه يرغب في العودة بمفرده، والحقيقة أنه أراد أن ينفرد بنفسه، تماما كما

رغب عمار الطونبا أن يهرول بمفرده بعد الذي سمعه.. أمه قتلت أباه بسبب حبيبته نيسة بوتوس، لو أنه قرأ مثل حليم بن صادق التراجيديات الإغريقية لأقسم أن ما يعيشه أكثر مأساة، ولكنه لم يقرأها، لأنه ببساطة توجه إلى الحياة العملية بعد الابتدائي مباشرة، لذلك اكتفى بالهرولة بغير هدى وهو يتمتم «لا يمكن.. مستحيل».
لم يدر بنفسه إلا وهو في حسين داي، سار كل المسافة بين باش جراح وحسين داي دون أن يشعر، وحين وصل كان المؤذن يؤذن لصلاة الفجر، فاستغل الفرصة ودخل مع المصلين المسجد، ثم اتجه إلى بيت الوضوء وغسل وجهه ورأسه ليستفيق من «كيف» الأمس وصدمة أمه، ثم خرج والمصلون لم يقيموا صلاتهم بعد. بحث أولا عن مقهى مفتوحة، وحين وجد واحدة بحومة الشوالق، تذكر أنه مفلس ولا يملك حق فنجان بن، فقال لنفسه«أستعطف صاحب المقهى وأقول له أنني عابر سبيل»، ثم عدل عن الفكرة وقد تذكر صديقا له يسكن في نفس الحي، لم يكن صديقا بقدر ما هو زميل قعدة وسمر، ولكن لا بأس في أن يلجأ إليه، فلطالما وجده هذا الكلب في أيام الأزمات. ولكنه عدل عن هذه الفكرة أيضا، ودخل المقهى دون أن يضع أي خطة. طلب فنجان بن وحليبا وحبة ملفاي، وجلس ينتظر ما لم يعلم.

كان جالسا وفقط، وصاحب المقهى لا يفكر بالطبع أن أول زبائنه مفلس، لذلك استفتح به مبتسما وطلب منه أن يجلس وسيخدمه النادل. لم يعلق واكتفى بالجلوس، فلم يشأ أن ينتبه إليه أحد، لا النادل ولا صاحب المقهى.

كرع كوب الحليب الساخن مرة واحدة، كان يشعر بالبرد، وسرت حرارة الحليب في جسده، أشعرته ببعض الدفء، ثم التهم حبة الملفاي([20]) كأنها حبة عنب صغيرة، فاستعار ذلك انتباه صاحب المقهى، لم يكن الأمر غريبا بالنسبة إليه، فمن يعمل في مقهى يرى العجب العجاب، ما شد انتباه «المعلم" هو هيئة عمار الطونبا. لم يبد له «زوفري"([21]) أو متسولا أو طالبا جامعيا، فمن عادة هؤلاء إذا جلسوا إلى الأكل قضوا عليه في لحظات، حتى تحسبهم لا يمضغون ما يلقونه في أفواههم، و«المعلم" بحكم التجربة يفرق بين الرجال ويملك مكنة تمييزهم.. هل أخطأ هذه المرة.. حاشا، فهو في المهنة منذ سنوات، ومن كان بتجربته هذه، يميز بين الرجال بمجرد أن يلقوا التحية، لذلك حين دخل الطونبا وألقى السلام، عرف أنه يعيش في نعمة، راجل، شيكور([22]).

لم تخدعه ملامح التعب على وجهه، ولا استكانته التي أدخلها معه، ولا حتى خجله المصطنع.. فهذه تكون عند الشيكور زينة لا أكثر..

أشار المعلم إلى النادل وهمس في أذنه، فحمل النادل حبة ملفاي وقارورة عصير واتجه صوب الطونبا الذي بدأ في ارتشاف قهوته، ولكن أي قهوة هذه دون سيجارة محترمة، خاصة قهوة الصباح، لا تصلح بدون سيجارة، ومن الأفضل أن تكون سيجارة «نسيم" أو ماركة أخرى من التبغ الأسود، مرة المذاق، جافة، قاسية النكهة، كريهة الرائحة، هكذا يجب أن تكون سيجارة الصباح، شبيهة به، بحياته، ليس حياته كلها، حياته قبل أن يسمى الطونبا، قبل أن يتحول إلى مجرد جرذ، ينتهز فرصة أتاحتها له امرأة غافلة، مريضة بالباركينسون والسكري ليضاجع ابنتها، قبل أن تتلخص عنده الرجولة في فرج نيسة بوتوس، تلك العاهرة التي أغرت أباه، حولت أمه الأرنب إلى وحش لا يأبه بالقتل، وحولته إلى نصف رجل بالتفاؤل.

«يقول لك المعلم هذه من عندنا". خاطبه النادل وهو يضع الملفاي والعصير على طاولة الطونبا، وحين حاول أن يعلق، باغته المعلم بصوته العميق: «و إن شئت، يعطيك النادل سيجارة". أراد أن يحتج، أن يقلب الطاولة ويمسك بخناق المعلم ويصرخ به «ماذا تحسبني.. متسول؟"، لكنه لم يفعل، حرك كتفيه، لوح بيديه إلى المعلم شاكرا. وطلب من النادل سيجارة.

لم تمض دقائق حتى امتلأت المقهى بكل صنف، المصلون الخارجون من صلاة الصبح، العائدون إلى منازلهم سكارى بعد ليلة مجون، حراس الحظائر المنتهية دورياتهم، نزلاء الشوارع المستيقظون رغما عنهم، عمال الشنطيات([23]) من نزلاء الحمامات والفنادق الرخيصة، المسطولون الذين يعودون إلى منازلهم ليناموا حتى أولى ساعات الليل، العمال الشرفاء، النشالون.. كان بمقدور عمار الطونبا أن يميزهم واحدا واحدا، صنفا صنفا، كان «الديسات"- حيه بباش جراح- مليئا بمثل هؤلاء، لكنه لم يعبأ بهم، عكس المعلم ونادله، اللذين نشرا عيونهما الأربعة بينهم خوفا من تملص أحدهم من دفع الحساب، تماما مثلما فعل الطونبا حين خرج من المقهى، مستترا كاللص، كالجرذ، وهو يظن أنه تملص من الجميع، دون أن يدرك أن عيني المعلم رصدتاه، لكنه لم يفعل إلا أن ابتسم.. ابتسامة شفقة.

حين توقف رنين الهاتف انمحت الابتسامة التي ارتسمت على وجه حليم بن صادق، وعوضتها ملامح لا وصف لها، فقد تذكر للتو أنه لم يعط أباه مفتاح الشقة الجديدة.

«ألم أخطط جيدا للانتحار؟". سأل نفسه وهو يشعر بالحزن على والده، ليس لأنه نسي المفتاح عنده، بل لأنه تذكر أيضا ما رآه في عيني أبيه صباحا وهو يعانقه

- هل أنت بخير؟

سأله عمي خليفة حين انفصلا عن بعضهما، فلم يكن من عادة حليم أن يعانق إلا أمه.

- بخير.. بخير. أردت فقط أن أودعك

- تودعني؟..

قال عمي خليفة وفي عينيه ألف سؤال غلفتها الدهشة مما يحدث

- لا عليك أبي..

ثم انصرف يشيعه إلى الباب في صمت، بنظرات تراوحت بين الرأفة والشفقة.

ما أن اختفى حليم عن نظره، تذكر عمي خليفة مفتاح الشقة الذي تركه عند ولده، ولكنه لم يهتم، ما داما قد اتفقا أن يعود مع ابن خالته بعد ساعة لتحميل الأثاث. أما حليم فلم يتذكر المفتاح لأن أمورا أخرى كانت تشغل باله، وهي ذات الأمور التي جعلته يخلف موعد ابن خالته، ليتجه مباشرة إلى موقف الحافلات.

كان وهو يسير نحو المحطة يحاول أن يركز النظر في كل شيء، كان يعلم أنها ستكون المرة الأخيرة التي يرى فيها باش جراح، لذلك أخذ كل وقته للوصول إلى المحطة التي وجدها على غير عادتها..

- أنظروا....

أخذ بعض الشباب يصيحون:

- أنظروا.. السيس كانز.. السيس كانز

ثم اتجهوا صوب رجل ملتح، طويل الشعر، يرتدي سروال جينز أزرق قذر وقميصا أحمر مفتوح الأزرار، كاشفا على جسد مفتول، لم يترك الشعر بقعة منه إلا وغزاها.

لم يكن الرجل على ما يبدو مهتما بما يحدث في المحطة، رغم الأهازيج التي كادت تصم الآذان، ورغم الرايات الصفراء والسوداء التي حولت المحطة إلى ما يشبه ملعبا لكرة القدم، كان أكثر ما يشغله، سلك يحاول أن يجعل منه حزاما لسرواله المتدلي.

وما هي إلا لحظات حتى وجد الرجل نفسه فوق الأكتاف، رغم ما كان ينبعث منه من رائحة، جعلت معظم من في المحطة يتمنون لو أنهم ولدوا مجدوعي الأنوف.

ورغم أنه كان على الأكتاف، إلا أن السيس كانز ظل مشغولا بسرواله وحزامه المعدني، وهو لا يدري أنه بدأ للتو رحلة ستقوده إلى الكاليتوس.

أثناء ذلك كان حليم قد استقل الحافلة إلى الحراش. جلس وهو ينظر إلى السيس كانز عبر الزجاج وقد انتهى من شأن حزامه المعدني، كان المسكين ينظر حوله لا يدري ما حل به، أما حليم فقد كان بالكاد قادرا على منع نفسه من الضحك، فمنذ وقت طويل لم يدخل شيء البهجة إلى قلبه، مثلما فعل هذا البائس المجنون، وإذ ذاك تمنى حليم أن يكون مشهد المجنون على الأكتاف آخر ما يذكر حين يكون في الهواء.

لم يكن ليدري أن أمنيته ستتحقق لاحقا، ولكن دون أن تدخل إلى قلبه ما تمناه من البهجة، فقد كانت رؤية السيس كانز منعزلا عن الجماهير المهتمة به قبل الارتطام، ما طير نشوته وهو يستعيد وضعيته بعد أن ازدادت القوة الضاغطة، ولم يعد قادرا على لي رقبته ليرى ما يجري في الأسفل.

ربما كان السيس كانز راغبا في الوقوف مثل العشرات الواقفين بالقرب منه، ولكن ألم قدمه منعه من ذلك، فقد أصبح ألما لا يطاق جعله يؤجل بحثه عن المسجد الذي أقام فيه منذ عامين، لذلك فضل قبل حين أن يجلس منتظرا أن يتوقف الألم. ولخوفه من أن يتيه مجددا فضل أن يجلس في مواجهة العمارات الشبيهة بعمارات باش جراح، تلك التي اكتشفها خلف عمارات عدل الشاهقة.

حين وصل السيس كانز إلى هذا المكان، كان الرصيف شبه خال من المارة، وجميع المحلات مغلقة، فلم يكن الناس قد فرغوا بعد من صلاة الجمعة.

قبل أن يجلس نزع عنه قميصه الأحمر المبتل بالعرق، كان متعبا من المشي. شعر بحرارة رغم اعتدال الطقس، ربما لأنه لم يكف عن المشي بحثا عن مكان

يتعرف عليه منذ لحظة وصوله إلى الكاليتوس، لذلك قرر أن ينزع عنه قميصه إلى حين، وإذ ذاك جلس محدقا في عمارات صفراء كان قد لمحها من بعيد.

لم تمر دقائق حتى انتهت الصلاة، فخرج الناس أفواجا وفرادى، والسيس كانز يحاول جاهدا أن يجد طريقة ليجعل ألمه يتوقف.

في البداية نزع أربطة حذائه، وحين لم يجد ذلك نزع حذاءه بالكامل، إلا أن الألم عوض أن يخف وينحسر انتقل من قدمه إلى ساقه وركبته ومنهما إلى فخذه، فلم يجد السيس كانز من وسيلة غير مد ساقه على عرض الرصيف.

أثناء ذلك بلغت أولى الوفود الخارجة من المسجد الرصيف، وكان يسبقها رجل بدا مستعجلا في مشيته، كان يرتدي قميص صلاة أميريا، حليبي اللون وصندلا جلديا يجره جرا وكأنه قد تمزق من أحد طرفيه، ومن فرط تعجله لم يلحظ ساق السيس كانز الممدودة، فاصطدم بها حتى فقد توازنه، إلا أنه في لحظة ما استطاع أن يعيد توازنه بحركة رياضية سريعة، كادت أن تمنعه من السقوط لو لم تعمل القذارة المبعثرة هنا وهناك عكس ذلك.

لم تمر دقيقة عن سقوط الرجل، حتى امتلأ الرصيف بالمتفرجين على انتحار حليم، ثم لم يلبث المتفرجون أن ملأوا نصف الطريق المقابل لعمارات عدل، بعد أن فاض الرصيف بهم. في حين فضل البعض قطع الطريق للحصول على رؤية أفضل، ولكنهم بمجرد أن اكتشفوا أن الرؤية تكاد تكون مستحيلة، عادوا وقطعوا الطريق من جديد، وهو نفس ما اكتشفه بدر الدين أوراري حينما حاول استجلاء ما يحدث، فبمجرد أن خرج من العمارة أدهشته الحشود المتجمعة عند الباب وعلى الجهة المقابلة، فرفع رأسه حيث كان الجميع ينظرون، فلم يستطع رؤية شيء، إلا أنه بدل أن يقطع الطريق اتجه مباشرة إلى حظيرة السيارات الموجودة خلف العمارة ليحضر سيارته، فقد غلبت رغبته في التخلص من نبيلة، رغبته في معرفة ما يجري فوق العمارة.

صعد سيارته «الياريس" وأدار مفتاح المحرك.

أثناء ذلك كانت نبيلة ميحانيك قد بلغت الطابق الأول، تجر خلفها حقيبة سوداء بعجلات، وتضع على كتفها حقيبة يد بنية، كانت تسير بتثاقل من يسير إلى حبل المشنقة.

أحست برغبة في البكاء، ولكن الدموع التي طالما حالفتها في السابق امتنعت عن عينيها هذه المرة، فاكتفت بالتجهم وهي تفكر في طريقة تجعل بها بدر الدين يعدل عن رأيه.

تأففت وهي ترى نهايتها، فلم يكن ما رأته جميلا. ثم سرعان ما بادرتها نفسها بسؤال «هل أنا المخطئة؟"..

«ربما.. لا يهم". أجابها كبرياؤها وهي على مشارف أن تتذكر وجه حليم في حانة ماتاراس، فبعد كل هذه السنين لم تستطع أن تمنع نفسها من تذكر وجهه لحظة اكتشف جريمتها..

بالطبع لم تكن نبيلة لتجبر نفسها على التذكر، أو لم تكن سابقا تملك الشجاعة على التذكر، ولو أنها ملكت بعض الشجاعة لتذكرت حليم بن صادق وهي تعود إلى الشقة لتحضر حقيبتها، بعد أن فقدت كل أمل في الحفاظ على بدر الدين، فقد أخبرها أن علاقتهما انتهت ولا مجال للمحاولة، حتى حيلة الإغواء لم تنجح معه هذه المرة، فالرجل قد أكلها وشربها، ولم يعد لها من الأوراق ما يمكنها من الاستمرار في اللعبة.

ولو أنها ملكت بعض الشجاعة أيضا لتذكرته حين دخلت منذ حين إلى الحمام لتغسل وجهها من أثر الكحل الذي سود وجنتيها، بسبب ما أذرفته من دمع حاولت به إقناع بدر الدين للعدول عن رأيه. رفعت رأسها فرأت في المرآة المعلقة فوق المغسل الصغير، وجه شبح لا لون له، لاحظت وهي تقرب وجهها من المرآة حلقات شبه دائرية تحيط بطرفي عينيها.

لم يفاجئها الأمر وهي تعلم أنها تطرق باب الثلاثين، بحياة صاخبة بالسهر والسكر والتدخين. وإذ ذاك فلتت من عينيها الصارمتين دمعتان.

كانت تنظر إلى وجهها النحيل بلا لون، ودمعتاها تحفران على وجنتيها أخدودين بتثاقل وحذر شديد، وهي لا تفعل إلا النظر إلى وجهها، دون أن تحاول مسحه أو غسله من جديد..

ولكنها، بعد دقائق، حين وقفت على عتبة باب العمارة، لم تستطع أن تمنع نفسها من تذكر صوت حليم في الهاتف منذ يومين فقط

- ألو.. من معي؟

- نبيلة؟

- نعم.. من معي؟

- حليم

- حليم؟

قالت وقد عرفت الصوت. شعرت برعشة تعتريها من أسفل قدميها إلى رأسها، أما هو فقد كان جافا باردا، وكأنه يكلم شخصا لا يعرفه

- نعم حليم بن صادق

- نعم.. نعم عرفت الصوت

قالت تتلعثم كطفل طرق للتو باب الكلمات، ثم ما لبثت أن استعادت هدوءها، وسألته بنبرة المنتصر:

- ولكن من أعطاك رقم هاتفي؟

- لا يهم، فقط أريد أن أقول لك شيئا، وأتمنى أن لا تقطعي الخط حتى أنتهي

- لا أستطيع فقد يسمعنا زوجي

- زوجك؟

- نعم زوجي

ضحك حليم، فاخترقت ضحكاته أذنيها وقد أدركت أن كذبها لم يعد يفيد معه، إلا أن غرورها جعلها تتعصب لكذبتها، فمن يكون مثلها متعودا على الكذب، لا يكبحه شيء عنه، فحتى قطرات الصدق التي قد يجود بها لسانها، لا تسقط إلا من غيمة الكذب، فغالبا ما تقول الصدق من عوج اللسان..

- نعم زوجي، فأنا متزوجة منذ ثماني سنوات

- إذا كنت تعتبرين معاشرتك لبدر الدين زواجا.. المهم دعيني أقول لك شيئا مهما

حاولت أن تكذب من جديد، ولكنها أمام الصدمة وجدت أنه من الأفضل لها أن تركن إلى الصمت وتتركه يتكلم

- ماذا تريد بالضبط؟

- لا شيء محدد، فقط أحب أن أخبرك أنني شفيت منك

ضحكت ولعلها شعرت بسعادة ما.. «شفيت منك»، أحست أن هذه الجملة إطراء لها، ولكنها لو تمعنت فيها أكثر، لأدركت أنه شبهها بالمرض.

شعر وهو يسمع ضحكها أنه يحدث عاهرة قهقهت فرحا بالمال الذي حصلت عليه، «يا ألله، أهذه من كانت ستصبح السيدة بن صادق». قال يناجي نفسه

- بالشفا إن شاء الله

علقت ساخرة، ثم فكرت «ما زال هذا نفس الغر الذي عرفته منذ سنين».

- أتذكرين قصة فرخ الدجاج التي قصصتها عليك؟

سألها وهو يعلم أنها لا تذكرها، فلطالما ادعت أنها تصغي إليه، وهي لا تفعل إلا التظاهر بذلك.

- أي قصة هذه؟

قالت بنبرة المتنرفز، وأضافت:

- أعتقد أنك تريد تمضية الوقت فحسب، يستحسن أن تقفل الهاتف، ولا تحاول الاتصال مجددا

قالت ذلك، وقد ألبست صوتها بعض الحزم

- لا، ليس هذا ما أريد

قاطعته:

- ماذا تريد بالضبط؟

- فقط أن تذكري القصة بين الحين والآخر

ثم أقفل الخط..

لم تعر مكالمته بالا ساعتها، ولكنها حين كانت بمفردها واقفة بمدخل العمارة تذكرت قصته تلك. كان من الغريب أن تتذكرها في لحظة ضعفها، ولكنها فهمت أخيرا أن قصة فرخ الدجاج كانت تلخص حياتها بشكل غريب ومخيف في الوقت ذاته.

«قيل أن فرخ دجاج فرّ من خم والدته هربا من ثعلب هجم على الخم وقتل أمه وإخوته، وفي هروبه لم يجد إلا إسطبلا فدخله، فوجد فيه أتانا وبقرة، فقص عليهما قصته، يترجاهما أن تنقذاه، فرفعته البقرة بذيلها وغمسته في حفرة مملوءة بروث

البهائم، فأخذ يصرخ يستنجد بالأتان، فأخرجته هذه، ثم نظفته مما علق به من قذارة، فشكرها وأخذ يسب البقرة بسبب ما فعلته به، ثم قامت الأتان وجعلته خلفها، حتى إذا دخل الثعلب الإسطبل ولم يره انصرف عنه، وإذ هو كذلك دخل الثعلب الإسطبل فتبع رائحته حتى وجده وفعل به ما فعل بأمه وإخوته الفراخ».

ربما كان يجدر بحليم بن صادق أن يقصها أيضا على عمار الطونبا، قبل أن يصير إلى ما آل إليه، قبل أن يهيم على وجهه، بحثا عن مكان لا تكون فيه نيسة بوتوس، وحيث لا تقتل الأمهات أزواجهن، ولكن إلى أين.. خارج الديسات هو لا شيء، مجرد زوفري، مجهول بدون وطن، رجل بلا ذاكرة، منزوع التاريخ والبطولات، سيكون مثل حليم جاره، لا يخشاه أحد، ومن كان مثله لا يعيش بدون خوف الناس منه.. سيكون أقل من حليم شأنا، فعلى الأقل لا أحد يجرؤ على حليم لأنه متعلم، لأنه فخر الديسات، «حليم الجورناليست فخر الديسات» مثلما كان أبوه يقول، أول وآخر من دخل الجامعة في الديسات. لطالما عايره به أبوه: «رحم الله البطن التي أنجبته، عمك خليفة خلف الرجال، أما أنا فقد خلفت كلابا وخنازير».. هكذا كان أبوه يقول.

في قرار نفسه كان عمار الطونبا يعترف بتميز حليم عنه وعن بقية شباب الحي، وربما كان يحبه أيضا، والأكيد أنه احترمه رغم تقاربهما في السن، ولكنه في ذات الوقت كان يشفق عليه، مثلما أشفق عليه معظم أولاد الحومة، فقد كان معظم الوقت مفلسا، رث الثياب ولكنه لم يكن يأبه، أو هكذا كان عمار يتصور، لذلك لم يجد حرجا في إقراضه المال دون أن يطلب حليم منه. وإعمالا للاحترام فقد تعارفا على تسمية ما يتصدق به عليه «القرض»، وكليهما يعلم أنها صدقة، لهذا ربما أحبه حليم، كان يرى فيه الرجل الفحل الكريم، رغم جميع عيوبه، قرفه.. كان يحبه رغم كل شيء..

خرج عمار الطونبا متملصا، وهو يظن أنه غافل صاحب المقهى ونادله، ثم سار على قدميه حتى بلغ ساحة أول ماي، ومن ثم وجد نفسه في باب الوادي، لم يكن قد قرر شيئا عدا أنه لن يعود إلى أمه، فلم يعد قادرا على النظر إليها، لذلك قرر الانسحاب من حياتها، لئلا ينسحب حبه لها في نفسه. أثناء سيره المضني أدرك أنه لا يهرب من جرمها، بل يهرب من جريمته هو، حين أدخل في حياته هذه العاهرة بوتوس. صحيح لم تكن حياة أسرته هادئة، فأخواه من أصحاب السوابق وهو أيضا دخل السجن مرتين، لكن تلك كانت حياتهم التي اختاروها لأنفسهم، وكل ما اقترفوه

يمس سمعتهم لوحدهم دون أبويهم، لكن ما اقترفه هو كان أعظم، أدخل في حياة أبيه نيسة بوتوس فأغوته، وأدخلها في حياة أمه فحولتها إلى قاتلة، وأدخلها في حياته فمسخ من أسد جسور إلى ضبع يسأل الصدقات.. آه أيها الزمن الكلب.. آه على زمن العاهرات.. صرخ في داخله، فعاد صراخه إليه صدى يملي عليه قراره الأخير: «ابتعد عن حياة أمك العجوز، عن سجن أخويك اللذين لو سمعا بما فعلت، لصلبوك مع عاهرتك ورموك إلى لوطيّي الديسات، يفعلون بك ما كنت تفعل بعشيقتك، يعاملونك كالكلب، فقط لأنك كلب، وأي كلب.. «باتار» لا يملك اسما ولا أصل..».

بلغ باب الوادي، حاول أن يقتل الوقت بالتسكع في أسواقها، قتل ساعة في السوق المغطاة وساعة أخرى في سوقها الشعبية، ثم عاد أدراجه إلى ساحة الشهداء، آملا أن يرى أحد معارفه، وحين يئس، قرر أن يعود إلى حومة الشوالق لعله يجد «معرفته»، ولكن المسافة بدت له مستحيلة على قدميه، لذلك فكر أن يصعد الحافلة. لم يكن معه أي دينار، فقد أنفق كل ما أعطته له أمه ليلة البارحة على الكيف والروج. حدثته نفسه أن يسأل قابض الحافلة أن يدعه يركب ويشرح له أنه لا يملك ثمن التذكرة، ولكن كبرياءه كبحه، فصعد الحافلة متسللا، فعلى ما يبدو ما زالت طبائع الجرذ منقوشة فيه.

-9-

حين توقف رنين الهاتف، كان حليم بن صادق قد بلغ الطابق العاشر، ولم يعد يفصله عن لحظة الارتطام إلا سبع ثواني. بدأ يشعر أن سرعته تزداد مع اقترابه من الأرض، إلا أن ذلك لم يرعبه، فقد كان يعلم بحدوث ذلك وهو يضع خطته للانتحار، ربما يكون قد خاف بعض الشيء، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه محاولا أن يعثر في ذاكرته عن أي ذكرى تنفس عنه.

أغمض عينيه محاولا أن يركز، ولكنه في آخر المطاف لم يعثر على أي ذكرى تستحق أن تشيعه إلى العالم الآخر، وحين فقد الأمل وقرر أن يفتح عينيه، تذكر شيئا جعله يغمض عينيه من جديد. لقد كان يمكن لأي أحد يطل من شرفة الطابق الحادي عشر، أن يرى السكينة التي ملأته لحظتها.

أخيرا استطاع أن يغفر لنفسه وللعالم أجمع، اختفت جميع مخاوفه من الغد

الذي لم يعد مجبرا على انتظاره، ربما كانت غايته من الانتحار هذه الطمأنينة التي يشعر الآن بها وهو على بعد سبع ثوان من النهاية، فلا بد أن تكون النهاية عند الرصيف الذي ينتظر جسده ليمسخه جثة هامدة، وهناك لا بد أن تكون النهاية حقيقة لا لبس فيها، أما حكايات اليوم الآخر فقد تركها إلى حينها.

أكثر ما كان يشغله قبل أن يقدم على الانتحار، عقوبة ما بعد الموت، فلطالما سمع إمام المسجد يتحدث عن جهنم المنتحرين، ولكنه كان يشك في صدق هؤلاء المرتزقين بالدين، لم يكن مقتنعا بأن الله العادل يعاقب من فر إلى عدله من ظلم دنياه، لم يكن يؤمن أن الجنة الواسعة تضيق بمن آمن بها وفر إليها. بحث في الكتب حتى وجد ما اقتنع به، نافذة صغيرة فتحتها عدالة الله لمن كان مثله، فحين قرأ الآية «.. فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه» توقف عن البحث، أفتى لنفسه بعدها أنه من المضطرين لمغادرة الحياة، وبهذا لم يعد متشككا في قراره.

في هذه اللحظة، شعر أنه يحب الجميع، حتى نبيلة شعر نحوها بالحب، انمحت جميع خياناتها في لحظة حب عارمة، حتى أنه حين أغمض عينيه من جديد ترك ذكرى أول ليلة يقضيانها معا تشيعه إلى العالم الآخر. تذكر حين دخل عليها الغرفة فوجدها تطل من النافذة، لم تكن شاردة الذهن، كانت تنتظره، فقد أمضت أكثر من الساعة في انتظاره في شقة أختها المتزوجة، وقتها كانت شقيقتها تقضي مع زوجها العطلة في مكان ما، فعملت نبيلة على سرقة المفتاح، وواعدته فيها.

شعرت بذراعيه يلتفان حول خصرها، وبيديه يتجسسان جسدها الذي كاد يذوب بينهما من حرارة اللمس، رفع شعرها من خلف، وشفتاه تمشطان رقبتها السمراء، قبلها بلطف وكأنه كان يخشى أن تذوب على شفتيه، وفي نفس الوقت كان يشعر بيديها وهي تلمس يديه تارة وفخذيه تارة أخرى، وفي كل مرة تحاول أن تستدير، كان يمنعها بذراعيه القويتين، فتجد نفسها مجبرة على الخضوع، خضوعا يزيدها متعة، لتستدير بوجهها باحثة عن شفتيه، ويداه تنتقلان دون كلل من أسفل بطنها المسطح إلى رقبتها الملساء، وفي رحلتهما هذه تشدان جسدها إلى جسده حتى يلتصق دبرها بأسفله، وهي لا تكف عن المأمأة وتطالب بالمزيد.

كانت هذه أول مرة يمس فيها امرأة، وكانت هذه أول مرة يجرب فيها رعشة الحب، لذلك فقد اختار أن تكون ذكراه هذه، آخر ما يشيعه إلى السماء.

وبينما كان حليم منتشيا بذكراه الأخيرة، كان بدر الدين قد أخرج السيارة من الحظيرة، ليقل نبيلة إلى أي مكان تريده غير حياته، فلم يعد قادرا على رؤية وجهها القبيح كلما استفاق صباحا، فمع مرور السنين، تحولت رغبته الجامحة فيها إلى نفور بالكاد استطاع إخفاءه، ربما لأنه لم ينس أبدا كيف حصل عليها، لم ينس كيف ذبحت رجلا أحبها أياما فقط قبل زواجها منه، لم ينس تعليقها الساخر، حين غادر حليم حانة ماتاراس مصدوما:

- نبيلة. ما بك؟.. هل تعرفينه؟

- لا عليك، مجرد غر أغرم بي

بعد شهور أخبرته خالتها(أمه) أن هذا الغرّ هو خطيبها.

لم تكن تعلم ساعتها أنها بتعليقها الساخر، أصدرت مرسوم إذلالها..

لم يضيع بدر الدين وقته في تسخين السيارة، فقد كان مستعجلا للحاق بحياته، ولم يكن يفصله عنها إلا رحيل نبيلة منها.

كانت الحشود ساعتها قد احتلت نصف الطريق، فاضطره ذلك ليسلك طرقا داخلية بين العمارات، وما هي إلا لحظات حتى وجد نفسه في الطريق الرئيسي، فزاد من سرعته رغبة في تعويض ما فاته من وقت، ورغم أن الرؤية كانت شبه مستحيلة بسبب الحشود المحتلة للطريق، إلا أنه قرر أن يستمر في التقدم، فخطر بقاء نبيلة في حياته، كان أكبر بكثير من خطر الطريق.

كان خطرا شبيها بالذي حام بعمار الطونبا حين أمسك به قابض الحافلة وهدده بتسليمه للشرطة إن لم يدفع ثمن التذكرة.. الشرطة، كلمة مرادفة في قاموسه لكلمة السجن. تخيل الأمر لحظة، فهاله ما يمكن أن يحدث، سينظرون في سوابقه، وسيجدونه مذنبا، فهو صاحب سوابق، ولن تحتاج الشرطة إلى محاكمته، فكل صاحب سوابق في نظرهم مذنب، مخلوق غير قابل للتوبة وإن كانت صادقة. سيبيت ليلة أو ليلتين أو حتى أسبوعا في الزنزانة قبل أن يرأفوا لحاله ويسلموه إلى المحكمة.. تخيل كل ذلك في لحظة، تخيل ما قد يجدونه من متعة في أسبوع كامل من الشتم والركل والضرب على القفا، ولا شيء سيمنعهم، فهو صاحب سوابق، من سيصدقه حين يكشف ضربهم له، حتى هو لن يصدق نفسه. هو ليس جبانا، يمكنه أن يحتمل، ولعله سيجد في السجن راحته، فهو المكان الوحيد الذي لن تدخله نيسة

بوتوس، ولكنه مكان يسهل للذكريات أن تتسرب إليه، فالوقت هناك يتمدد إلى ما لانهاية، تنبت فيه الذكريات كالطحالب المسمومة، تتفرع، تتجذر. كان هذا ما أخافه و جعله ينضبع أمام قابض الحافلة.. قبل رأسه، استكان كفأرة بين مخالب قط، وأخيرا أجبر عينيه أن تذرفا دمعا.. بكى وهو الذي لم يبك لوفاة أبيه أو لهول مصيبته بأمه. بكى فرأف به القابض، وأخلى سبيله بعد أن مكنه من بطاقة هويته كضمان على أنه سيدفع ثمن التذكرة لاحقا.

لم يحز في نفس عمار الطونبا شيء من ذلك، فقد كان مجبرا على الاستنعاج، هذا ما أقنع نفسه به، لكن الذي حز في نفسه حقا ما قاله القابض وهو ينصرف عنه، مزهوا بانتصاره وهو يضع بطاقة عمار في جيب سرواله الخلفي: «ياخي راجل، المرأة راجل عليه». قال ذلك هازئا.

«آه لو علم الكلب من أكون». صرخ في داخله.» لو علم فقط ابن الزانية من أنا، لبال في سرواله قبل أن يفكر حتى في الكلام معي». ثم حدق جيدا فيه حتى لا ينسى وجهه وهو يناجي نفسه «غير الجبال اللي ما يتلاقوش»([24]).

-10-

على بعد أمتار من مكان انتحار حليم، كانت شاحنة البان تشق طريقها بجهد.

قال السائق موجها كلامه إلى عمي خليفة:

- لا تقلق، فحتى لو لم نجد حليم فسنكسر الباب، وحين ننتهي نعيد إصلاحه من جديد، لن يستغرق ذالك وقتا طويلا.

هز عمي خليفة رأسه موافقا.

وأضاف السائق:

- وفيما يخص الأثاث، نستأجر بعض الشباب لتحميله.

هز عمي خليفة رأسه من جديد، فضحك السائق في محاولة لتلطيف الجو:

- أقسم يا عمي خليفة أنني طوال عشرة أعوام من العمل، لم أر أحدا يؤخر الفرش والبطانيات ليجعلها فوق الأثاث.

- وماذا في الأمر؟

قال عمي خليفة وقد خرج من صمته.

... (لقد استطاع السائق بسذاجته أن يحقق هدفه)

- يفترض أن يوضع الفرش بشكل يحمي زجاج الأثاث من الكسر

- لو كان حليم حاضرا لما وقع هذا الخطأ

ابتسم وكأنه يستذكر شيئا وأضاف:

- وعلى ما يبدو سيصبح خبيرا في ترتيب الأثاث والترحيل

ضحك السائق ضحكا خفيفا وهو يهز رأسه موافقا على ملاحظة عمي خليفة.

- لم تقل لي كم يكلفنا نقل الأثاث

قال عمي خليفة، مخرجا من جيبه حزمة أوراق نقدية

- لا عليك، فنحن أقارب

أجاب السائق بنبرة لا صدق فيها.

- العمل هو العمل، أما العائلة فأمر آخر... خذ

وسلمه كل الرزمة.

حين مد السائق يده ليأخذ المال، اصطدمت العجلات الأمامية للشاحنة بممهل زفتي لم ينتبه إليه. سقط المال من يده، فحاول بحركة عفوية أن يلتقط الأوراق، وإذ ذاك علا صوت عمي خليفة صارخا من الخوف:

- انتبه.. انتبه... أنظر أمامك..

أما السائق فلم يجد من حل إلا أن وضع كلتي قدميه على الفرامل، وصاح:

- الله يستر..

-11-

حاولت نبيلة ميحانيك أن تمنع نفسها من التفكير في الغد.. ابتسمت مرة أخرى ولكن بمرارة، فلم تعد الابتسامة قادرة على محو الحقيقة، حقيقة أنها فقدت للتو كل أمل في رؤية الغد.

ما يهمها الآن، أن تجد لنفسها مكانا تعيش فيه، فلم يعد مرحبا بها عند بدر الدين ولا عند أبيها، أما الحب والزواج...

حملت شتات شكيمتها وهمت بنزول درج المدخل، هي الآن بمفردها..

حاولت أن تحزن لحالها ولكن الدموع امتنعت عنها هذه المرة، فقد شعرت أن لا جدوى من البكاء على ميت مات منذ زمن، منذ أن قررت ترك حليم..

"حليم".. صاحت في داخلها: "ما الذي جعلني أتذكره؟"

تساءلت بغباء، وهي تجر حمار حياتها خلفها، محاولة نزول الدرج..

قبل الحين، بدت لها المسافة بين شقة بدر الدين وباب العمارة امتدت بشكل أسطوري، كان بوسعها لو أرادت أن تجد الوقت لحل كل مشاكل العالم، ولكنها ما كانت لتجد حلا لحياتها بعد أن تعمدت أن تجعلها بلا معنى.. كان يمكن لها لو صبرت قليلا أن تكوّن أسرة، وأن يصبح لها أبناء ولكنها قررت بحمقها أن تصبح على ما هي عليه اليوم، مجرد عشيقة لرجل لم يعد راغبا فيها.. لم تكن راغبة أن تؤول الأمور إلى ما آلت إليه، كانت تريد حليما زوجا لها وأن تبقى عشيقة بدر الدين ولكن الأحمق اختار أن يكون في الوقت والمكان غير المناسبين، فاكتشف حقيقتها.. لم يكن لها من خيار آخر غير الاستمرار في علاقتها مع بدر الدين، وكانت في ذلك تحلم أن تتحول علاقتهما إلى زواج.. كانت تحلم بذلك فحسب.

على عتبة باب العمارة انتشلتها من أفكارها القاتمة رؤية الناس المحتشدين قبالتها رافعين رؤوسهم إلى أعلى، ربما تكون رغبت في معرفة ما يحدث خارجا، وما يجعل الناس يحتشدون هكذا، ربما تكون رغبت في ذلك ولكنها لم تفعل شيئا غير البحلقة فيهم، منتظرة وصول بدر الدين.

بحلقت فيهم كما كان يفعل عمار حين أخذ يبحلق في وجوه ركاب الحافلة، جميعهم ينظر إليه، لم تكن تنقصه الفطنة ليدرك أنهم رأفوا لحاله، جلهم أشفق عليه ومن تبقى كان ينظر إليه باستهزاء.. "يا للهول..رجل يبكي.. يبكي لأنه لا يملك ثمن التذكرة، لأنه يخاف الشرطة، لأنه أصبح....، لم يستطع أن يكمل تصوره، وفي لحظة جنون ورجلة قرر أن يعيد بعض كرامته، بعضها فقط أو بعض ما تبقى منها، فنيسة بوتوس لم تترك له شيئا من كرامته، داست عليها وعليه، لكن لا بأس، حسابها قادم، فأنا لم أمت بعد "قال لنفسه"، وحين أستعيد عافيتي أعود، فلا بد من العودة ذات يوم، ولتدع تلك العاهرة ربها أن تموت قبل ذلك، أما الآن فسأستعيد بعض كرامتي، وسيدفع هذا القابض النذل ثمن ما أذرفت من دموع، وهذه النظرات الهازئة والمشفقة.

نزل الجميع في محطة بروسات بمن فيهم الطونبا والقابض الذي سلم الحساب والتذاكر إلى مراقب المحطة، ثم دخل مكتب المحطة ونزع عنه لباس العمل وخرج ملوحا لزملائه يعلمهم برحيله. ربما انتهت دوريته، أو ربما تملص من العمل بتواطؤ الجميع، لا يهم، ما يهم أن عمار الطونبا سار خلفه مستترا كمحقق خاص يتبع مجرما، أو كمجرم يتبع ضحيته، لا يهم، ما يهم أنه كان يتبعه كما يتبع الوحش فريسته، حتى بلغ القابض محطة القطار ونزل إلى الرصيف.

كان الرصيف مكتظا كعادته، فتمكن عمار أن يختفي بين الجموع، وهو يراقب القابض عن بعد، كما يفعل الصقر قبل أن ينقض على فريسته. بقي على حاله نصف ساعة حتى وصل القطار، وإذ ذاك احتشد الناس، يتسابقون من يركب أولا، أما القابض فتخلف إلى الوراء، على ما يبدو لم يكن ينوي ركوب القطار، كان ينتظر أحدا هناك.

انتهز عمار الطونبا فرصة انشغال الجميع بالقطار وانقض من الخلف على القابض الذي وجد نفسه قبل أن يدرك على الأرض ينزف دما من أنفه، فقد بادره عمار بلكمة على حين غفلة جعلته يخلط ليله بنهاره، هكذا هو عمار الطونبا، شيكور الديسات، ابن أبيه، حين ينقض على أحدهم لا يتركه إلا كالعجن المنفوش. جره بشدة وخفة إلى حيث لا يراهما أحد، وبعد أن صفعه صرخ فيه:

- ماذا كنت تقول منذ حين،..ياخي راجل([25]):

صفعه مرة أخرى

- الآن من هو الرجل، أنا أم أنت

كان القابض رغم خوفه، يحاول أن يستنجد بالناس المنشغلين عنه وعمار لا يكف عن لكمه وصفعه وركله، حتى اختفت ملامح وجهه من غزارة الدم.

وحين شعر عمار باستكانة فريسته، سأله بلطف المنتصر الخبيث:

- أين بطاقتي يا ابن أمك

أخذ القابض المسكين يبحث في جيوبه، فأمهله عمار لحظات ليبحث براحته وكف عن ضربه، وهو منشغل بين مراقبته ومراقبة جواره خوفا أن يراه أحدهم، وإذ ذاك انتهز القابض الفرصة وفر بجلدته في اتجاه القطار، في حين اختبأ عمار خوفا من الناس، ولكنه سرعان ما أظهر نفسه وهو يرى القابض يسحق تحت القطار، حين

حاول الهروب إلى الرصيف المقابل عبر سكة الحديد، دون أن يرى القطار القادم في الاتجاه المعاكس.

-12-

على بعد أمتار من نبيلة ميحانيك، كان بدر الدين يحاول اختراق الحشود التي ملأت الطريق، ولكنه رغم خبرته الطويلة في السياقة وجد صعوبة في إقناع المحتشدين أن يفسحوا له، ولما تأكد أن لا مناص من الانتظار، رفع قدمه عن المسرع وترك المحرك مشتعلا في انتظار فرصة للمرور. ثم أطفأ المحرك وهو ينظر من زجاج السيارة، فرأى نبيلة تقف أمام مدخل العمارة فلوح لها بيديه ولكنها لم تلحظه. خرج من الياريس بعد أن أغلق الباب ورفع يديه ملوحا لها من جديد، ولكن العشرات من المحتشدين منعوا الرؤية عنها أو هكذا فكر وهو يستطيل واقفا على أخمصي قدميه، كان رغم بدانته نابوليوني القد. وحين يئس من جدوى التلويح خطر له أن يطلبها في هاتفها النقال ولكنه قبل أن يهم بإخراج هاتفه تذكر أنها أخبرته أنها حطمت هاتفها في لحظة غضب.

كان ذلك يوم هاتفها حليم..

أخيرا قرر بدر الدين أن يترك سيارته ويتجه صوبها فلم تكن تفصلهما إلا أمتار.

خطوة.. خطوتان..

توقف بعد أن أدرك أن الذي يفصله عن نبيلة أكثر من مجرد أمتار معدودة، كانت العشرات من الأجساد المتسمرة في مكانها تنتظر القادم من السماء..

-13-

لم تكن سكينة حليم بن صادق لتدوم إلى الأبد، أو لم تكن لتدوم زمن السقوط لو أنه فتح جفنيه ونظر إلى الأسفل ورأى بدر الدين يترك سيارته دون أن يرفع فرامل اليد مستعجلا للوصول إلى نبيلة، فما كاد بدر الدين أوراري أن يبتعد عن سيارته الياريس مترين حتى بدأت في الحركة إلى الوراء دون أن ينتبه إليها العشرات المتسمرون بقربها، أما بدر الدين فقد كان منشغلا بدفع من يحول بينه وبين نبيلة التي لاحظته أخيرا فحاولت بطريقتها أن تنبهه إلى ما يحدث للسيارة، إلا أن المحتشدين حالوا دون أن يفهم إشارات يدها أو يسمع صوتها الموءود. في الأخير

فهم أنها تريده أن ينظر خلفه، وحين فعل شده مشهد الحشود الناظرة إلى أعلى، ففعل مثلهم فرأى رجلا يتهاوى من فوق.. "يا ألله.."، صرخ دون أن يرغب فعلا في الصراخ، وفي لحظة انضم، دون أن يعي، إلى حلقة المتسمرين مكانهم وهو ينظر فاغرا فاه..

- غفر الله له

- الله يكون في عونه

-.. ربما يكون سقط خطأ

- .. لا ريب أن مصيره النار

استمرت التعاليق تشق طريقها بين شفقة وتنديد وحزن إلى حيث كان حليم بن صادق المخدر بسكينته التي جعلته يغفر للجميع. لا أحد يعلم فيم كان يفكر ساعتها، لكن ابتسامته التي ارتسمت منذ حين على وجهه الممتلئ كانت لتوحي بأمرين: إما أنه سعيد بموته أو أنه قد مات فعلا، وليس ما يبدو على وجهه إلا مجرد تشنج عضلات لا غير. في حين استمرت سيارة الياريس تتحرك دون أن ينتبه إليها أحد باستثناء نبيلة التي اندفعت نحو بدر الدين لتنبهه بعد أن أدركت أنه لم يفهم إشاراتها. لم تكن الطريق إليه سهلة كما كانت تتصور، فقد كان عليها أولا أن تخاطر بحقيبتها السوداء ذات العجلات وتتركها دون حراسة، ثم كان عليها أن تجد لنفسها طريقا بين هؤلاء المتسمرين في مكانهم، والأخطر من كل ذلك أن لا يشد انتباهها مشهد القادم من السماء مثلما حصل مع بدر الدين، إلا أنها بعد أن استقرت على رأي واندفعت في اتجاه بدر الدين، تاركة حقيبتها عرضة للسرقة، تسمرت هي الأخرى في مكانها، وهي ترى مشهدا جعلها تصرخ وكأنها رأت شبحا للتو..

الأكيد أنها لم تكن مصدومة من مشهد حليم وهو يتهاوى من أعلى، فقد كان الأمر أكثر خطورة من مجرد انتحار..

10 حليم الصحفي.

11 لدامة: تلعب على رقعة الشطرنج، يستعمل كل لاعب 12 قطعة توضع في المربعات السوداء دون البيضاء.

12 هذا واش قدرت أدير: دارجة معناها «أهذا ما تقدر عليه».

13 فايح: بمعنى نتن.

14 نحب كي تردني الكلبة انتاعك: دارجة معناها «أحب حين تجعل مني كلبتك».
15 تقصد الجنس الشرجي.
16 القضيب.
17 ألا شيء اليوم.
18 غير هدوك راهم: معناها «هؤلاء فقط..»/ انساي: معناها «انسي» / راه ربي يشوف: معناها «إن الله يرى».
19 معناها «لا يهم»
20 من الحلويات/ دارجة مفرنسة معناها بالفرنسية «ألف ورقة»
21 معناها العامل المغترب عن أهله/ دارجة مفرنسة معناها بالفرنسية الرجل المتألم وفي العادة تستعمل لتمييز العمال أصحاب الأعمال الشاقة ممن يضطرون إلى العمل في مناطق بعيدة عن ذويهم
22 معناها الفتوة
23 الورشات.
24 مثل شعبي معناه «يمكن لجميع الأشياء أن تتلاقى إلا الجبال».
25 معناها «أي رجل أنت؟».

الفصل الأول مكرر

لحظة انفصلت قدماه عن الحافة انتابه الشك في قراره الأخير، لم يعد متأكدا منه كما كان منذ أقل من ثانية، فعلى الأقل لم يكن يعلم أن مشهد الفراغ الممتد من مكانه إلى غاية الرصيف، سيؤثر على قلبه مثلما يفعل الآن، فيجعله ينبض نبضات متسارعة تكاد تمنع عنه الهواء.

«هل أنا خائف؟».. قال في نفسه وهو يعرف الجواب سلفا. فلم يكن ما شعر به خوفا بقدر ما كان ارتباكا. شعور طالما لازمه كلما استقر على قرار، وهو اليوم بلا ريب قد اتخذ قراره الأهم، أو هو ينفذ قرارا اتخذه منذ أكثر من ستة أشهر، في لحظة إشراقة تجلت دون سابق إنذار، وهو يطل من شرفة بيت أبيه في باش جراح.

كان الجميع نياما فيما عداه، فقد كانت الساعة حينها الرابعة صباحا.

وقف يبحلق في الفراغ، وبين وسطاه وسبابة يده اليمنى سيجارة بدأ للتو تدخينها، ولكنها رغم ذلك التهمت نفسها حتى لم يبق منها إلا النصف بسبب نهمه ورغبته المتزايدة في المزيد من النيكوتين. كان يفكر في شيء غير محدد.. كان يفكر في كل شيء وعيناه حمراوان كأنه انتهى للتو من البكاء أو استيقظ في الحين من نوم دام العمر كله. هكذا كان وأنفاسه المتقطعة تفسد عليه نشوة التدخين ولكنه كان يحاول أن يتجاهلها رغم معرفته بخطر ذلك، فقد صعد لتوه خمسة طوابق بسرعة فائقة، عائدا من رحلة بحث مضنية استغرقته نصف الساعة، وكان جديرا به أن يستريح أولا من تعب الرحلة والطوابق الخمسة قبل أن يشعل سيجارته، لكن رغبته في التدخين أصمّت آذان منطقه الذي طلقه منذ قرر القيام برحلة بحثه تلك منذ نصف ساعة.

وهو يبحلق في فراغه، قطع صوت وقع أقدام صادر من آخر الحي تفكيره في لاشيء. أشاح بنظره فرأى فتية يلوحون له بأيديهم فحياهم بدوره ملوحا لهم، ثم اخترق صوت أحدهم سكينة الحي النائم «هل تريد أخرى؟»، فهز رأسه وكتفيه موافقا ونزل مسرعا إليهم.

- يعطيكم الصحة

قال شاكرا وهو يستلم سيجارة من أحدهم. وبينما استمر الفتية في طريقهم،

بقي حليم بن صادق في مكانه محاولا أن يسترد أنفاسه، فليس من اليسير على رجل مثله بلغ الأربعين أن يصعد وينزل خمسة طوابق في لحظات، فما بالنا برجل في الأربعين، بدأ التدخين في العاشرة من عمره وكسب من الشحم ما يجعل المشي لعشرة أمتار يشبه العدو لعشرة كيلومترات.

في لحظة وقوفه تلك أدرك ما انتهت إليه حياته من مأساة. أصبح يستجدي المسطولين سيجارة كما يفعل أي شحاذ يستجدي لقمة عيش، على الأقل لم يكن الشحاذ ليخجل من نفسه بقدر ما عليه هو أن يخجل.

تذكر رحلته المضنية التي جعلته يخرج ليلا إلى الشارع، فكره نفسه أكثر مما فعل للتو، ولكن ماذا يفعل مدمن على التدخين مثله في ساعة متأخرة عندما يشعر بالرغبة في سيجارة وهو لا يملك دينارا واحدا في جيبه.. تذكر كرامته تمسح الأرض كما كانت عيناه تفعلان وهما تمسحان رصيف الحي بحثا عن أعقاب سجائر رماها أحدهم، استمر في بحثه مدة حتى جمع عددا لا بأس به من الأعقاب. لم يشعر ساعتها بالاهانة فقد كانت رغبته المتزايدة في التدخين تخدر عقله وقلبه معا، وكانت رائحة الدخان المتصاعد من تلك الأعقاب تمنع رؤيته لحقيقة ما أصبح عليه. ومع انتهاء آخر عقب بدأ رحلة أخرى شبيهة بالأولى حتى انتهى عند جماعة من المسطولين يجلسون في حلقة يدخنون، فحاول أن يصطنع بعض الوقار عندما أدرك أنهم شاهدوه منحنيا يلتقط شيئا من الأرض.

ألقى السلام بعد أن تكلف ابتسامة تحسب أنه اقترضها من يهودي بالولادة، فردوا عليه السلام بشيء من التثاقل، وإذ ذاك وقف أحدهم وكان قد تعرف عليه

- صح حليم.

وأضاف: «واش خرجك هاذ الوقت، سور راك أومبان في الدخان»([26]):

كان ذلك "عمار الطونبا" أشهر مسطولي باش جراح على الإطلاق. كان لا يصحو من سيجارة "كيف" حتى "يبرم" أخرى، ورغم أنه لم يكن يعمل في شيء إلا أنه ما اشتكى يوما من الإفلاس، فلم يكن من هم لأبيه المجاهد وشقيقاته المتزوجات إلا رعايته والإنفاق عليه، خشية أن يعود إلى عادة السرقة التي أدخلته السجن مرتين، وخشية أن يسلك طريق الإجرام مثل أخويه القابعين في السجن منذ خمس سنوات بعد أن حكم عليهما بالمؤبد بسبب القتل. كانت توبة عمار الطونبا مشروطة

بما يدفع له يوميا، ينفقه على "الزطلة" وشتى أنواع المسكرات، وأيضا على جارته نيسة المعروفة في الحي بخلاعتها.

تقدم حليم بن صادق نحو الجماعة وصافحهم الواحد بعد الآخر، حتى إذا بلغ عمار الطونبا سلم عليه بحرارة، فلم يكن قد رآه منذ أسبوع. دعاه عمار إلى الجلوس، فامتثل وهو يعلم ألا سبيل إلى رفض الدعوة، فطلبات عمار أوامر، ومن كان يعرف طبعه الشرس ووسوسته لا يرفض له شيئا، فقد كان رجلا خطيرا، أول حديثه اللكم وآخره لا يعلمه إلا الله، ورغم أن حليم يعرف معزته لدى الطونبا، إلا أنه لم يفكر مطلقا في امتحان صبره عليه وسعة صدره معه، لذلك اكتفى بقبول دعوته وجلس بجواره.

قال الطونبا، مخاطبا جماعته: " هذا حليم الجورناليست.. تعرفونه بالطبع". فهز الجميع أكتافهم بما يوحي أنهم يعرفونه، أما حليم بن صادق فلم يعرف أي واحد منهم. لم يكن الأمر غريبا، فقد كانوا من كائنات الليل، خفافيش لا تظهر إلا حين يأوي هو إلى فراشه، أما عمار الطونبا فيعرفه بحكم الجيرة وبحكم أنهما درسا معا في نفس الابتدائية.

سادت لحظة صمت كان فيها الجميع بمن فيهم حليم بن صادق يراقبون عمار الطونبا وهو يلف سيجارة "كيف": مدد ورقة "ماصة" على راحة يده اليسرى، ونثر عليها تبغا أفرغه من سيجارة عادية. فعل ذلك ببراعة: في البداية لعق السيجارة بلسانه، وشد بطرف قاطعيه طرفها فانسلخ من السيجارة شريط ورقي أبرز للعين تبغها، فنثره على الماصة برفق، وإذ ذاك وضع عقب السيجارة على جنب وأخرج من جيب سترته بيده اليمنى قطعة صغيرة من "الكيف"، قطعها إلى نصفين، أعاد نصفها إلى جيب سترته وفتت النصف الآخر على التبغ المنشور على طول ورقة الماصة التي لفها بحركة بديعة، لتشكل سيجارة غير ملتصقة، ثم عَلَق وسط السيجارة الملفوفة بلسانه فالتصق طرفاها، وحتى ينضغط التبغ الملغوم بالزطلة، وضع عقب السيجارة الذي تركه جانبا برأس السيجارة الملفوفة، حتى انضغط التبغ، وحينها نزع العقب ولوَّى رأس سيجارة "الكيف" لئلا يتسرب منها التبغ، في الأخير أشعل ولاعته ومررها على طول السيجارة حيث لعق أول مرة، لتجف من البصاق، ومن غير أن يطفئ ولاعته أشعل سيجارة الكيف..

- خذ نفسا

قال عمار الطونبا، عارضا على حليم بن صادق سيجارته الملغومة، فابتسم حليم معتذرا وقد هز رأسه بما يفيد ذلك. في هذه لم يكن يخشى من ردة فعل جاره عمار الطونبا، فطول الجيرة أقنعته أن لا علاقة لحليم بكذا أمور.

- إذن خذ سيجارة عادية من تلك التي تدخنها النساء.

علق عمار فضحك الجميع، ضحكا باهتا كوجوههم المنطفئة.

لم يقل عمار شيئا، فلا أقل من أن يحتمل القليل من بذاءة جاره في سبيل حصوله على سيجارة في هذا الوقت من الليل، واكتفى بسحب سيجارة من علبة تكاد تنتصف بجوار عمار الذي مرر السيجارة الملغومة إلى غيره، وهذا مررها إلى سواه حتى عادت إلى عمار الطونبا من جديد. كانت السيجارة الملغومة كلما وصلت أحدهم، يأخذ نفسا سريعا ويتبعه بنفس أعمق، حتى ترى الدخان يخرج من فمه ومنخاريه، فلم تكد السيجارة أن تتم طوافها الرابع حتى استسلمت للانتهاء.

قال عمار يحدث حليم:

- أما زلت تعمل من دون أجر؟

- أي سؤال هذا، تعرف أنني لا أعمل بالمجان

- تعرف ما أقصد

- تلك أمور تحدث بين الحين والآخر، فحتى في عالم الصحافة نصابون وشرفاء

- لكنني لا أستطيع أن أفكر أن رجالا مثقفين يمكنهم أن يعملوا في النصب والسرقة، كنت أحسب أنه عمل احتكره أمثالي من الصعاليك.

ضحك حليم متعجبا من طيبة جاره

- لا عليك، هذه أمور تحدث، ثم إن أكبر جرائم النصب تحدث في أكبر المؤسسات، ولا يمكن أن يدير هذه إلا رجال متعلمون

- صدقت، ولكني كنت أقصد النصاب المثقف الذي ينصب على مثقف زوالي مثلك، هذا أمر أعظم من سرقة عجوز تحتضر، مثل ما فعل مديرك هذا.. فارس أهكذا اسمه؟

- اسمه بالكامل فارس شجاع

- هذا اسم غريب

- غريب كأبيه، اسم مستعار لا يليق به

- مستعار؟

- نعم، مثلما أستعير أنا بين الحين والآخر أحد سراويلك

- لكنني لم أعرك أي سروال من قبل

ضحك حليم مرة أخرى

- أقصد مثلما أستعير منك سروالك، أنت تلبس مقاس40 وأنا مقاسي46، يعني أنه لن يلائمني مهما فعلت. هو أيضا استعار اسما لا يلائمه.

قهقه عمار حين فهم المعنى وأضاف:

- لعله يخجل من اسمه الحقيقي، فأنا مثلا أعرف رجلا لقبه العائلي "الطحان"، اسم فريد.. الطحان

- قد يكون ابن عم أو شقيق مديري، فهو وإن كنت أجهل لقبه الحقيقي طحان ابن طحان، يكفي أن تراه مع كاتبته الأرملة التي جعلها مسؤولة لتدرك ذلك، أقصد تدرك أنه طحان، لا يُرى إلا ماشيا خلفها..

علق عمار الطونبا:

- ربما لأنه مغرم بمؤخرتها

- أو ربما لأنه كلب ابن كلب، مجبر أن يسير خلفها

ضحك عمار حتى استلقى على ظهره وقد استشرت الزطلة في جسده، وحين استعاد هدوءه بعض الشيء قال ساخرا:

- لو كنت مكانك لاغتصبت عشيقته نكاية به

- لو كنت مكاني ورأيت وجهها لنفذت بجلدك، أو لتركت جلدك خلفك لتنقذ عظامك..

- ألهذا القدر قبيحة؟

- وأكثر

- ولكنها لن تكون بقبح خطيبتك السابقة؟

- أقول لك أكثر.. أكثر

تملك عمار الطونبا الضحك من جديد وقال في كلمات متقطعة تفصل بينها قهقهاته:

- لا ثدي ولا دبر؟

- لا ثدي ولا دبر.

- ولا حتى وجها مليحا؟

- مليحة كرجل مشعر يسكن في مكب قمامة، والأدهى اسمها..

- لا هذا كثير..

صاح عمار وهو يكاد يموت ضحكا:

-لا تقل لي أن اسمها نبيلة؟

- كان ذلك سيكون بهيجا.. اسمها سعيدة.. سعيدة كرامي

تخيل عمار الطونبا الصورة: أنثى في جسد رجل مشعر يسكن في مكب قمامة واسمها سعيدة.. خر أرضا وقد تملكه جنون الضحك..

- اللعنة عليك وعليها، كيف يمكن أن تسعد وأن تكون كريمة.. هذه ليست إلا مرحاضا متحركا، اسكت.. كفى..

لكن حليم أضاف:

- وتريدني أن أضاجعها و..

قاطعه عمار: - قلت لك هذه مرحاض..

- حاشا للمراحيض، فعلى الأقل لا يمكن للواحد منا أن يستغنى عنها أسبوعا واحدا....

حين انتهيا من نمهما وغيبتهما، استأذن حليم للانصراف، ادعى أنه لم يعد قادرا على السهر فأذن له عمار الطونبا وودعه مصافحا. وضع في جيبه ورقة بخمس مائة دينار ولف فيها سيجارة. قال له وهو ينصرف: "هذا دين سترده ذات يوم".

لم يكن يعلم أن وقت سداد الدين سيحين بعد أربعة أشهر فقط، حين طلبت نيسة بوتوس أن يقابلها لأمر هام. فكر أولا أن لا يذهب لموعدها، فقد كان يخشى أن يراهما أحد، ومثلما يقال في الديسات " لا تقول نيسة لأحد صباح الخير، إلا وهي

تفكر في ذكره"، وأيا يكون من يراهما فسيحكم عليه. فكر كثيرا قبل أن تغلبه الرغبة في معرفة سبب طلبها للقائه. قالت للفتاة التي أرسلتها إليه " قولي له أن الأمر مهم وخطير، يتعلق بعمار الطونبا". فقد كانت تعلم بمكرها أنه يحب الطونبا ويعتبره أخا له، لذلك تعمدت أن تزرع اسم عمار في رسالتها الشفوية له، وكان هذا ما جعله يقرر ملاقاتها رغم خوفه على سمعته، فلا أخبار عن عمار منذ أن غادر البيت ذات ليلة، فلا أحد يعلم ما حدث له، وأمه المسكينة لا تكف عن السؤال عنه، فلم يكن لها من أنيس غيره، زوجها توفى "بسكتة قلبية"، وابناها في السجن، أما عمار فلا أخبار عنه.

كان الموعد في ملعب التنس. لمحها من بعيد واقفة في مكان منعزل، فأشار إليها أن تسير في اتجاه المدرسة الابتدائية، ففي مثل هذا الوقت يكون خاليا من المارة وهذا آمن على سمعته، ولكنها لم تفهم إشارته وأولتها أنها تحية، فلوحت له تحييه بدورها.

أشار إليها من جديد وهو يتقدم في اتجاهها، ولما رأت إلحاحه في الإشارة وركزت أكثر فهمت أن عليها أن تسير في اتجاه المدرسة الابتدائية، فحملت خطاها بتثاقل وفي نفسها شيء من الحزن. ربما لم يتسن لحليم أن يرى ملامحها الحزينة تحت كل الماكياج الذي تضعه على وجهها، ولكنها كانت بلا شك تشعر ببعض الحزن، فرغم تغابيها لم تكن غبية في الحقيقة. لقد فهمت أنه لا يرغب أن يراهما الناس معا.

"ثم ماذا؟".. قالت في نفسها متحدية حزنها بكبرياء زائف تعلمت كيف تستظهره كلما شعرت بنفور البعض منها. رسمت ابتسامة ساخرة على وجهها، فانحسر الحزن عنه حتى اختفى أو كاد، فثمة منطقة في محياها لا سلطان لها عليها، لذلك انسحبت مسحة الحزن مكرهة لتجد ملجأ صادقا في عينيها، فهناك تجتمع أحزانها التي لا تنتهي، وهناك فقط يمكن لشتات أحلامها أن يستمر في الأمل أن تهدأ نيسة ذات يوم وتنظر إلى غدها دون خوف، و إلى أمسها المستمر في التقدم نحوها. في اختراقها، في حرقها، في أخذ ما تبقى منها، وهي التي انتهت ساعة بدأت، قبل سنين، حين كانت أترابها لم يعين حقد الجسد بعد، حين كن ملائكة يلعبن، يقفزن، يرقصن فرحا لأي شيء ويبكين حزنا على أي شيء. ففي تلك الساعة

انتهت وانطفأ نورها، منذ سنين..

لطالما جاهدت نفسها أن تنسى بداية ألمها، وأن تتقدم نحو غدها، ولكنها كانت تجد نفسها في كل مرة مكبلة بأمسها الموبوء، الملعون بجسد لم ترده هي، لم ترسم حدوده التي أخرجتها من براءة اللعب إلى بذاءة العبث الكافر بالطفولة.. بدأ الأمر كقصة وردية تجد فيها طفلة يتيمة من يعوضها عن أبيها الذي فقدته منذ سنين، هكذا تمنت وهي في الثانية عشرة من العمر، أن يكون لها أبا جديدا، فكل أترابها يملكن أبا، أما هي فلا تملك إلا صورا في ألبوم قديم تحتفظ به أمها في غرفة نومها.. لا تملك إلا خيالا باهت الضوء، يتجلى لها كلما أغمضت عينيها بشدة وهي تحاول أن تتذكر شكله، كان عليها أن تعود بذاكرتها إلى عشر سنين، فتعود من خيالاتها خائبة، لا تحمل إلا رغبتها في تذكر وجه غيّبته الموت وهي في الثانية من العمر. لم تكن تعلم ساعتها، لبراءتها، أن لا ذاكرة هناك حيث كانت تذهب في كل ليلة، حين تغمض عينيها بشدة وتتمنى أن تراه.

هكذا بدأ الأمر، بحث بريء عن أب لم تره.. تمنت أن يكون لها أبا جديدا، وحين أعجزتها الأماني، قررت أن تبحث عنه، وقبل أن تجده وجدها.

كان ككل أب يحب ابنته، يربت على كتفيها، يلملم شعرها الأشقر بيديه، وأحيانا يمسكها من يدها ويلاعبها، يقول لها أشياء جميلة، يهمس في أذنها "كم أنت جميلة"، فتضحك مثلما تفعل أترابها مع آبائهن، وكان هذا أباها بلا شك، فهي التي بحثت عنه وهو الذي وجدها.. تضحك، تضحك وهو يهمس لها بصوته الحنون "كم أنت جميلة يا حلوتي"، ثم يقبلها على خدها، فتضحك من جديد، فيقبلها مرة أخرى وتستمر هي في الضحك.

كانت تظن أنه يقبلها سعادة بضحكها، وأن يديه حين تلملمان شعرها وتربتان جسدها الطفل وتداعبانه، يدا أب حنون يحب ابنته.

بالطبع كانت تعرف أنه ليس أباها، وأنه في الحقيقة مدرسها في الابتدائي، ولكنها صدقت كلامه حين أخبرها أنه يحبها كابنته، وأنه حين يتزوج وينجب طفلة سيسميها نيسة. أما هي فكانت تنزعج حين يقول لها ذلك..

- وما حاجتك بابنة أخرى، ألم تخبرني أنني ابنتك الحلوة

- أكيد.. أكيد، ولكنها لن تكون مثلك، ولن أعلمها الأشياء التي سأعلمها لك

- مثل ماذا.. أخبرني أبي
- ألم نتفق أن اسمي "جبار" وليس أبي، أم تحبين أن أغضب عليك
تقبله على أنفه مداعبة ، وحين يبتسم تعانقه ضاحكة، فيجلسها على حجره ويقبلها.
تسأله ببراءة:
- في كل مرة تفعل هذا
- أفعل ماذا؟
- تجلسني على حجرك
- ألا تحبين الجلوس على حجري
- بلى أحب، ولكنك تفعل أحيانا أشياء تخيفني
- مثل ماذا؟
- حين تدخل يدك تحت تنورتي وتبدأ في تقبيلي على رقبتي
- وهل يؤلك هذا؟
- لا، ولكنه يخيفني، خاصة حين تصدر ذلك الصوت
- تخافين لأنني لم أعلمك بعد تلك الأشياء
- أية أشياء؟
- تلك التي لن أعلمها ابنتي
- وحين أتعلمها، هل ستحبني أكثر مما ستحب ابنتك التي ستنجبها
يضحك، جاعلا يديه تحت تنورتها
- سأحبك أكثر.. أكثر من كل شيء
يقبلها على جبهتها ويضيف:
- أتعرفين لماذا سأحبك أكثر؟
- لأنني سأكون قد تعلمت تلك الأشياء؟
- لا.. لأنك ستصبحين امرأة؟
- امرأة؟..

نقول في اندهاش، ثم تضيف:

- ولكنني امرأة

ينظر إليها بشره ويقبلها على رقبتها وهو يهمس لها:

- ليس بعد، ستصبحين امرأة بحق حين تحبين أن أدخل يدي تحت تنورتك، وحين تصبحين لا تخافين من الصوت التي أصدره..

امرأة.. رددت هذه الكلمة مرارا في رأسها، حتى أصبحت مهووسة بها، فقد كان لا بد أن تعرف كيف تصبح امرأة ليحبها أبوها جبار، فهي لم تعد قادرة على الانتظار إلى حين أن يعلمها تلك الأشياء لتصبح امرأة.

سألت زميلاتها وجاراتها، ولكنها عادت خائبة دون أن تعرف الاجابة، فهن مثلها مجرد فتيات لا يفهمن لغة الكبار، أما هي فكان عليها أن تصبح امرأة ليحبها أبوها الجديد، لهذا لم تجد بدا من سؤال أمها:

- أمي ما معنى امرأة؟

- ما معنى ماذا؟

- امرأة

- مثلي أنا، مثلك أنت، فأنا وأنت امرأتان

ضحكت نيسة وقد أدركت أن أمها لم تفهم سؤالها..

- أقصد متى سأصبح امرأة؟

- بعدما تكبرين

- ومتى ذلك، بعد عام.. بعد عامين.. متى بالضبط؟

- لا أعرف، ربما بعد عام أو عامين؟

- وكيف سأعرف ذلك؟

- آه فهمت..

قالت أمها واستطردت:

- لا بد أن الأمر حدث مع بعض صديقاتك

- أي أمر هذا؟

- لا تخافي فهو أمر يحدث مع كل النساء..

وهكذا أخبرتها أمها كيف نصبح الفتاة امرأة، قالت لها أنها في وقت ما ستشعر ببعض الألم في بطنها، وعليها ألا تجزع إن كان ألما شديدا، فهذا أمر طبيعي يحدث لجميع النساء، وبعد فترة وجيزة سيخرج منها بعض الدم، يكون في البداية خاثرا وشديدا، ثم تقل شدته شيئا فشيئا إلى أن يتوقف نهائيا، ثم يعود ليخرج منها مرة كل شهر لسنوات عديدة. حينها وحينها فقط ستصبح امرأة.. هكذا قالت لها أمها.

ربما ذلك كان آخر درس تلقته من أمها، فبعد فترة وجيزة أصيبت بالباركينسون، وكانت من قبل مصابة بالسكري، ففقدت سيطرتها على يديها ثم على جسدها، حتى لم تعد قادرة على فعل شيء دون أن تعينها نيسة.

ربما كان ذلك آخر دروس أمها، ولكنه بالتأكيد لم يكن آخر دروس والدها الجديد، الذي علمها أيضا تلك الأشياء، حتى أصبحت امرأة..

-2-

قدّر حليم بن صادق لحظة ارتطامه بالأرض أن تكون بعد عشر ثوان تحسب من لحظة قفزه من أعلى العمارة، إذ كان يكفيه أن يعرف وزنه وارتفاع العمارة وبعض القواعد البسيطة في الفيزياء، ليحسب بدقة كم يستغرقه الوقت ليرتطم بالأرض، أما عن فرص نجاته فكانت تساوي الصفر، وهو ما جعله يوقن أنه سيموت بعد عشر ثوان تحسب من لحظة قفزه من أعلى العمارة.

ربما كان يفضل أن لا يستغرق موته كل هذا القدر من الوقت، فعشر ثوان مدة طويلة جدا لو قيست بالذكريات. كان يؤمن أن الواحد قبل موته، يعرض عليه شريط حياته كاملا، من يوم خروجه من بطن أمه إلى لحظة موته، حتى و إن عاش ألف سنة، كل ذلك يتم في طرفة عين، فما باله بعشر ثوان كاملة، ولكنه كان واثقا أيضا من قدرته على التركيز، وعلى أن في حياته بعض الذكريات الجميلة التي سيركز عليها في الثواني الأخيرة من زمن السقوط، وهكذا يتملص من الامتداد الزمني لثوانيه الأخيرة، ذكريات جميلة تدفعه قدما إلى موت سعيد وليس إلى حياة تعيسة كتلك التأملات التي تملكته منذ ستة أشهر وهو واقف مكانه أسفل عمارته، بعد أن سلمه عمار الطونبا سيجارة أخيرة. ففي لحظة وقوفه تلك أدرك ما انتهت إليه حياته

من مأساة. «أصبح يستجدي المسطولين سيجارة كما يفعل أي شحاذ يستجدي لقمة عيش، على الأقل لم يكن الشحاذ ليخجل من نفسه بقدر ما عليه هو أن يخجل».

حين استعاد أنفاسه صعد السلم من جديد، خمسة طوابق أخرى. دخل غرفته بهدوء وتمدد في فراشه وأطبق جفنيه لينام، وبعد دقائق أدرك أن النوم جفاه، فخرج إلى شرفة المطبخ ليدخن سيجارته التي شحذها منذ حين. حاول أن يشغل فكره بأضواء الشقق الصفراء قبالته، فلم يكن بصره يستطيع أن يمتد إلى أبعد من العمارة المقابلة. وليس بإمكان أي واحد في باش جراح كلها أن يمد بصره وهو يطل إلى أبعد من العمارة التي تقابله، فقد بنيت باش جراح لتكون دورتوارا لا أكثر، زرعت على أرض كانت في زمن الكولون ولسنوات لاحقة أرضا زراعية، أكثر زرعها الكروم وأشجار البرتقال، ولم يكن فيها من مبان إلا بعض الفيرمات المخصصة للكولون والقليل من البيوت القصديرية، يسكنها الخمّاسون القادمون من ولايات أخرى، وعدا هذان المظهران الحضريان، كانت باش جراح قطعة من الريف الجميل، تقصدها عائلات الجوار من الحراش و لاغلاسيار وحسين داي لقضاء نهاية الأسبوع، واستمر الوضع على هذا الحال لسنوات بعد جلاء الرومي من الجزائر.

وككل الأحياء الجديدة المبنية في تلك الفترة، لم تكن باش جراح مدينة بقدر ما كانت دورتوارا كبيرا لا يصلح إلا للمبيت، بنته الدولة ترويحا على العاصمة التي هاجر إليها الفارون من فقر الريف الغني إلى ثراء المدينة الفقيرة، بعد أن أدركوا أن لا حياة في الحلم الذي عايشوه سبع عشرة سنة، فرغم مثاليته ما كان ليطعم البطون الخاوية أو يملأ العقول الفارغة. لم تكن هجرتهم إلى المدينة بغرض الثراء بقدر ما كانت للبقاء على قدر الحياة، لذلك لم يكن من المشين عندهم أن يعيشوا في بيوت كيفما شاء، أينما كان، فالمهم بالنسبة إليهم هو البقاء في المدينة مانحة الحياة.

هكذا أصبحت العاصمة في أقل من عشريتين من جلاء الرومي مدينة تنام على ريفها، ولم يبق في الريف إلا الريف لم يهاجر منه.

في تلك اللحظة بالذات، لحظة انحساره البصري، تجلى له المستقبل، ظلام في ظلام في ظلام. أربعون عاما من حياة الشحاذة، عشرون عاما يعمل في لا شيء،

عشرة أعوام يعيل عائلة تفرق أفرادها، حتى لم يبق فيها إلا والداه وأخوه البطال وأخته العانس، خمسة أعوام قضاها في دفع ديون أبيه وشقيقه المتكاسل التي لا تكاد تنتهي حتى تبدأ من جديد.

لم يكن الحل صعبا كما تصور دائما، كان لا بد له من الرحيل مثلما فعل شقيقاه الأكبر منه، هما أيضا دفعا من عرقهما وحياتهما الكثير حتى كادا يشيخان دون عائلة، دون زواج.. ولكنهما على عكسه انتفضا، صرخا في وجه أبيهما «كفى» وخرجا من بيته المستأجر ورميا ديونه التي لا تنتهي خلف ظهريهما. انصرفا إلى حياتهما، تزوجا، أنجبا أولادا، فعلا كل ما رغب في فعله ولم يستطع. لذلك أهدى والديه حياته، استمر في دفع ديون أبيه وإيجار الشقة ومصروف أخته وأخيه البطال دوما ودواء أمه العجوز.

في تلك اللحظة بالذات قرر أن يخرج من حياة هؤلاء جميعا، ولكن.. بطريقته.

-3-

غير بعيد من مكان حليم بن صادق، وصل إلى الكاليتوس مجنون جديد أضيف إلى قائمة مجانينها، كان يرتدي سروال جينز أزرق، تمزقت ركبتاه وحال لونه، متسخ ولكنه كان أقل قذارة مما كانت عليه الأرصفة التي زينتها أكياس قمامة سوداء حاصرتها بعض القطط بحثا عن الأكل، كانت جادة في بحثها إلى درجة أن مزقت بعض الأكياس وبعثرت محتوياتها على طول الرصيف، ولكنها سرعان ما انسحبت يائسة، بعد أن تأكدت من خلو الأكياس مما يصلح للأكل، وكأن الناس لم يعودوا يأكلون لحما أو سردينا، أو ربما أصبحوا يأكلون اللحم بعظمه والسردين بشوكه. كان اليأس ظاهرا على القطط المسكينة، بحيث تركت الكثير من الأكياس دون أن تمزقها حتى، ولكنها رغم ذلك لم تبلغ من اليأس ما بلغه عمار الطونبا حين وجد نفسه هائما، مصدوما مما حدث في محطة القطار.

الآن أصبح قاتلا كشقيقيه، قتل أباه بنيسة بوتوس وقتل القابض بالتخويف، ربما لم يطلق عليهما الرصاص، ولم يطعنهما بخنجر، ولكنه بلا ريب قتلهما بتهوره وحمقه، ولو أنه فكر مليا لأدرك أنه قتل أمه أيضا، حين جعلها بحبه الحيواني تقتل طيبتها وتمسخ إلى وحش لا يرضى إلا بقتل فريسته.

«يا الله ماذا فعلت؟». صرخ في نفسه، وهو لم يكف عن الصراخ عليها منذ أن هام على وجهه هربا من وجهه، وجه القاتل الذي أضاف إلى قائمته اسما جديدا، حتى الاسم يجهله، قتل شخصا يجهل اسمه..

لم يكن خائفا من أن تكتشف الشرطة ما حدث، فلم يكن ثمة شهود، وحتى وإن رأى أحدهم ما جرى، فلن يستطيع أن يدل الشرطة على هويته.

بهذا طمأن نفسه وقد نسي بطاقة هويته التي بقيت في جيب القابض المقتول، وعوض ذلك تذكر «معرفته» في حومة الشوالق، وفي الحال أخذ يبحث عنه حتى وجده واستدان منه بعض المال، مكنه من الصمود يوما آخر.

قال له «معرفته»:

- يحز في نفسي أن تكون على هذه الحال، ولكنها أيام وتنقضي

- هي كذلك

تمتم عمار وكأنه يستذكر أمرا حزينا

- أتمنى فقط ألا تقنط من رحمة الله، وتبدأ حياتك من جديد، ولا تحمل نفسك أكثر من وزرها، فكل نفس بما كسبت وما فعلته أمك فيخصها لوحدها ولا ذنب لك فيه، وما حدث للقابض قضاء وقدر

قاطعه عمار وسأله مستغربا:

- هذه لهجة غريبة عنك، هل تبت يا ملعون ولم أعلم

- بعد زواجي تركت كل شيء

- وتزوجت أيضا؟

- ولي بنت في الثالثة من العمر

- الله يبارك

- يبارك فيك أيضا

- إذن فأنت تسكن مع والديك وإخوتك

- لا لم أستطع، فكما تعلم شقتنا من غرفتين، وأحد إخوتي متزوج وله ثلاثة أولاد. استأجرت شقة في بوهارون وأنا أعمل هناك اسكافيا، أما عن اليوم فمن حسن حظك أنني في زيارة للوالدين

- هذا غريب

قال عمار يحدث نفسه، وقد علا صوته حتى بلغ مسمع «معرفته»

- وما الغريب في ذلك

- أن يحدث كل ذلك معك ولا أعلم

- ببساطة لأنك كنت في السجن حين تزوجت، ولما رزقت بمولود كنت في السجن للمرة الثانية

صمت عمار لحظة، محاولا استيعاب الأمر، فقطع «معرفته» عليه صمته:

- هذا رقم هاتفي النقال، أريدك أن تتصل بي بعد أن تقرر فيما سأقترحه عليك

- وما هو؟

- فهمت منك أنك تبحث عن مكان تبتعد فيه لتعيد بناء حياتك، يمكنني أن أتدبر لك مكانا في بوهارون إن شئت

- مسكن؟

- تقريبا، هو بيت قصدير كنت أسكنه قبل أن أستأجر الشقة التي أنا فيها، يمكنك أن تسكن فيه، أما عن الفرش فلا تهتم، فعندي منه الكثير

- والعمل.. ماذا سأعمل؟

- معي بالطبع

- اسكافيا؟

- يا رجل، لا عيب في أي عمل المهم أن تكسب قوت يومك

- حاشاك، أقصد فقط أنني لا أجيد إصلاح الأحذية

- ومتى كنت أجيدها أنا، سأعلمك شيئا فشيئا

- ولماذا تفعل كل هذا؟

- لأننا كنا أصدقاء سوء، وأحب أن نصبح أصدقاء خير

- ثم..

- لك في رقبتي دين أريد أن أرده إليك

- دين، أي دين لا أذكر

- أما أنا فأذكر

حك عمار رأسه، وبعد تفكير قال:

- ربما تقصد حين خلصتك من ذلك اللوطي الكلب عيسى البوسعادي حين حاول الاعتداء عليك وأنت فاقد الوعي. شربت تلك الليلة كثيرا ودخنت أكثر من اللازم حتى فقدت الوعي، ما زلت أذكر تلك الليلة في «الصابلات»، أنت نمت وأنا كنت مستلقيا، مغمض العينين، أحاول أن أسترجع طاقتي، وكان معنا عيسى البوسعادي..

قاطعه:

- لم أكن أعلم أنه يحب الذكور

- ولا أنا، اكتشفت ذلك تلك الليلة، حين حسبني نائما فتسلل بجوارك، ليفعل فعلته

- وأنا كنت نائما كالميت.. كنت ميتا بالفعل

- أما أنا فكنت مستيقظا، وحين رأيته يفتح حزام سروالك انقضضت عليه. الكلب حاول اغتصابك

- ولكنك منعته، بل كدت تقتله وكأنه حاول الاعتداء عليك، لهذا فأنا مدين لك

- لا دين ولا والو، كنت ستفعل نفس الشيء لو حدث معي ما حدث لك

- ورغم ذلك فهو دين يجب أن أقضيه.. أتعلم أن ذلك كان سبب توبتي

- ألهذا اختفيت مرة واحدة؟.. حسبت أنك خجلت من الأمر وأنك أثقلت زياراتك لي لهذا السبب

- بل لأنني احتجت لأن أكون بمفردي

- خيرا فعلت

- وهو الخير الذي أريد أن يصيبك

- لا أدري، فهذا أمر يحتاج إلى تفكير

- فكر كما يحلو لك، ولكن أحب أن أخبرك بأمر آخر

- قل

- إذا قررت المجيء فدع الطونبا في العاصمة وتعال بمفردك

- ماذا تقصد؟

- إذا قررت المجيء، فعليك أن تتخلى عن الزطلة والخمر، هذا شرطي، لا أريد أن نفتتن ونحن معا

ضحك عمار وعلق ساخرا:

- إذن فقد اتخذت قراري: سيبقى الطونبا مع عمار في العاصمة

-4-

لحظة افترش المجنون قميصه ليجلس عليه، كان حليم بن صادق واقفا على سطح العمارة ينظر إلى الأسفل، مبحلقا في لا شيء. وكأنه يحاول أن يصفي ذهنه مما ترسب فيه من ذكريات قد تجعله يعدل عن قراره في الانتحار، لكنه فيما يبدو لم يجد بينها ما يحمله على الاستمرار في الحياة، ولعله بعد استذكار مفصل لم يجد من الذكريات إلا ما يجعله متيقنا من قراره، على عكس عمار الطونبا حين عدل عن قراره في رفض دعوة معرفته يومين فقط بعد لقائهما في حومة الشوالق، ربما لأنه لم يجد مكانا يأوي إليه، وربما لأنه قرر أن يبدأ حياته من جديد، لا أحد يدري. لكنه كان يحتاج إلى بعض المال، فلا يصلح أن يؤويه صاحبه ويعلمه حرفة جديدة وينفق أيضا عليه، عليه أن يتفكّر بعض المال إلى حين أن يتعلم عمل الاسكافي وبعدها سيستقل بنفسه. لذلك ما أن استقر على رأيه حتى توجه إلى أقرب تاكسيفون ودخله. شكل رقما وانتظر، كان يراقب العداد بحذر، فأي خطأ في الحساب سيحرجه مع صاحب التاكسيفون، إذ لم يبق بحوزته مما أقرضه «معرفته» إلا مائة دينار.

رن الهاتف مرة.. مرتين وأجابه الصوت:

- ألو، من معي

- عمار، كيف حالك يا حلوتي

- بخير ولكن عمار من؟

- لم تسمعي صوتي ثلاثة أيام فقط ونسيتني، فكيف لو اختفيت شهرا واحدا

أدركت نيسة بوتوس أنه عمار الطونبا فحاولت أن تعتذر، ولكنه قاطعها:

- ليس معي الكثير من المال ولكنني أحتاجك في شيء

- قل أنا مصغية

- ليس على الهاتف، قابليني غدا على الواحدة أمام حديقة الحرية بديدوش، تذكرينها بالطبع

- بالطبع ولكن كيف أحوالك

- ليس الآن، لا تنسي أمام حديقة الحرية على الواحدة، لا تنسي الأمر مهم..

وقطع المكالمة.

في الواحدة التقيا، سلمت عليه كما تعودت أن تفعل، وهي تجلده بنظراتها المشفقة. قال لها وقد قرأ عينيها:

- أعرف أن ملابسي متسخة، وشعري أشعث ورائحتي كبطيخة فاسدة

ابتسمت دون أن تقول شيئا.

- لقد قررت أن أترك المنزل

- ولم، فأنت فيه كالملك لا تحتاج إلى شيء

- لا يهم السبب..

ثم أضاف:

- وسأنتقل للعيش في مكان آخر

- إلى أين..

قاطعها:

- لا يهم، إلى أي مكان

كان يحب أن يقول «إلى أي مكان لا أشم فيه رائحتك النتنة»، ولكنه تصنّع اللباقة وابتسم، ثم أضاف:

- أحتاج بعض المال، ولا يوجد غيرك من أستعين به

- ولكنك تعرف القدر وما فيها، وتعرف أنني لم أعمل قط

- أعرف ذلك ولكنني تذكرت أنني أهديتك خاتمين وسلسلة من الذهب

- بعتهما والله.. بعتهما منذ مدة

قالت ذلك بتردد

- المهم أنني أهدتك الخاتمين والسلسلة وأنا أحتاج إلى المال

- وماذا أفعل أنا.. قلت لك ليس عندي أي مال

أمسك ذراعها بقوة حتى تلوت من الألم وقال محذرا:

- اسمعي أيتها القحبة، سأنتظرك غدا هنا وفي نفس الوقت، إن لم تأتي أو جئت دون مال، فسأجعلك تتذكرين من هو عمار..

وإذ ذاك أفلت ذراعها وهمس لها بصوت جمع بين العذوبة والخبث:

- تعلمين أنني أحبك، وأحب أن يبقى هذا الوجه «ومرر أصابعه على وجهها».. أحبه أن يظل جميلا.. انصرفي الآن. ولا تنسي موعدنا.

انصرفت وهي تلملم دمعها، مسرعة الخطى، وقد فهمت تهديده جيدا. فمن يعرف عمار الطونبا كما عرفته هي، يعلم أنه إذا هدد فقد وعد..

-5-

فكر حليم بن صادق وهو يتهاوى إلى الأرض من علو خمسة عشر طابقا أن سقوطه على وجهه سيجعل من جسده جثة مشوهة على أقل تقدير، أو لعلها ستكون جثة بلا وجه.. جثة كتلك التي خلفها قطار وهران السريع في محطة حسين داي، كان المشهد مريعا، جسد تناثر أجزاء على عرض السكة الحديدية، لا اليد بقيت يدا ولا الرجل حافظت على شكلها، تحول جسد القابض إلى كتل متفاوتة من اللحم، كل واحدة في مكان.

تطلب الأمر عشرين دقيقة لقدوم الشرطة ونصف ساعة لرجال المطافئ الذين حاولوا مع رجال الشرطة العلمية جمع الأشلاء وكتل اللحم والأصابع المتناثرة هنا وهناك، ورغم كثرة عددهم إلا أن الأمر استغرق ساعتين كاملتين لينتهي، طوقوا المكان ومنعوا الدخول أو الخروج من المحطة. أما رجال الشرطة القضائية فحاولوا جمع أكبر قدر ممكن من الشهادات.

قالت امرأة «رأيته يلقي بنفسه تحت القطار»، وقال آخر» كان يقطع السكة إلى الرصيف المقابل، ففاجأه القطار»، وتدخل ثالث» أعتقد أنه انزلق وهو واقف على الرصيف»، وطالب جامعي رفض أن يقول شيئا لأنه غير متأكد، وصرخت شابة في العشرين صدمها الحادث «كان أمرا مريعا»، واستمرت الشهادات والتعليقات تتهاطل على رجال الشرطة المنهمكين بتسجيل أقوالهم المتناقضة في موضوعها،

المتطابقة في عدم احتوائها على ذكر عمار الطونبا الذي فر بجلده قبل قدوم الشرطة. وهكذا تم تسجيل القضية على أنها عملية انتحار، ولم يبق أمام الشرطة إلا تحديد هوية المنتحر.

كان الضابط المكلف بالقضية ينتظر تقرير الشرطة العلمية لغلق القضية ويضع اسما على ملفه، إلا أن التقرير تأخر أسبوعا، وحين تم إرساله، أكد أن الضحية مات بسبب الحادث، ولا يوجد ما يدل على تعرضه لأي اعتداء قبل وفاته، عدا بعض الرضوض التي قد تكون حدثت بسبب سقوطه على سكة الحديد، أما بالنسبة للبصمات فقد استحال رفعها بسبب تآكل جلد الأصابع اثر الحادث، ومع استحالة اللجوء إلى تقنيتي الحمض النووي وسجل الأسنان الطبي للضحية لانعدام قاعدة معلومات وطنية، استحال تحديد هوية الضحية بشكل علمي دقيق.

بعد أن أتم الضابط قراءة التقرير، وضعه في ملف القضية، وأخذ يرقن محضره النهائي: «.. وحيث أنه تم العثور على بطاقة تعريف في جيب الضحية تحمل رقم.....، فإننا نوصي أن تسجل القضية على أنها انتحار للمدعو عمار آيت الحسين، القاطن في حي باش جراح، عمارة 17 مدخل رقم.....».

-6-

حين بلغ حليم العمارة التي سيلقي بنفسه منها، رفع رأسه فلم يلحظ إلا شققا غير مشغولة، فقال يطمئن نفسه:

- جيد.. الخطة تسير على ما يرام

هذا ما قاله أيضا عمار الطونبا وهو يرى نيسة بوتوس تنتظره أمام حديقة الحرية.

- إذن أحضرت المال

هزت رأسها وسلمته رزمة أوراق من فئة مائتي دينار، أخذها ودسها في جيبه دون أن يعدها

- من أين جئت بها، أبعت شيئا من ذهبك؟

- لا، قلت لك أنني لا أملك ذهبا

- وقلت أيضا أنك لا تملكين أي مال

- نعم، كما قلت لك البارحة

- فمن أين أتيت بهذا كله، أحسب أن ما أحضرته يفوق 5000 دينار

- 6000 دينار لأكون دقيقة، وهو ليس مالي، أرسله إليك حليم

- حليم؟

- الجورناليست

- ومن أين له به، وهو على طول العام مفلس؟

- طلبت لقاءه وأخبرته بحاجتك الملحة إلى المال، وعن..

صمتت. خافت أن تخطئ في الكلام.

- وعن ماذا أيضا.. عن ماذا أيضا أيتها الرخيصة

-عن حالتك..

- أعرف ما تقصدين، ثم ماذا..

- لاشيء، واعدني هذا الصباح وأعطاني هذا المبلغ وهو يبلغك السلام.

نظر إليها بخبث وهو يبتسم، وكأنه كشف للتو سرا تخفيه:

- إذن أعطاك هذا المبلغ وقال لك أبلغيه السلام

- بالضبط

- وكم اختلست منه؟

فاجأها سؤاله فترددت

- سألتك كم سرقت لنفسك؟

- لاشيء، هذا كل المبلغ

قبل أن تتم جملتها، خطف حقيبة يدها وفتحها بخفة نشال متقاعد وأخرج منها حزمة أوراق أخرى

- لاشيء.. وهذا؟

- هذا لدواء أمي ولا علاقة لك به

- دواء أمك، يا...لا تجبريني على ضربك أمام الناس، تعرفين أنني لا أهتم وقد جربت من قبل ضربي

شدها من ذراعيها، فأحست بأصابعه تكاد تخترق لحمها
- قولي أيتها الكلبة، تكلمي
- هو لك، هذا مال حليم
أفلت ذراعيها وشدها من شعرها حتى انحنت كالراكعة.
- سأهاتفه مساء، وإن تبين لي أنك أخذت شيئا..
قاطعته:
- لن تستطيع
- ولم؟ أعرف رقم هاتفه، أم نسيت أنه مثل أخي
- لقد با ع هاتفه وتلفازه ليحصل لك على هذا المبلغ

-7-

تمتم حليم بن صادق: «لا يمكن.. مستحيل»، ردا على أبيه حين أخبره بالخبر المفجع:

- أقول لك أن الخبر صحيح، لقد جاء رجال الشرطة وأخبروا أم عمار بذلك، لقد ألقى عمار بنفسه تحت القطار، ولولا بطاقة التعريف التي وجدوها لما عرفوا من يكون، فقد تشوهت جثته وتقطعت إربا واستحال التعرف عليه.

صعقه الخبر، هزه كما لم يفعل خبر آخر من قبل، حتى اكتشافه لخيانة نبيلة لم يصعقه مثلما فعل خبر انتحار عمار. تمنى أن يكون أبوه مخطئا، ولكن أمه أكدت الخبر:» كنت عند أمه هذا الصباح، المسكينة لم تستطع حتى الكلام».

إذن فالخبر صحيح. عمار مات، انتحر..

في الجنازة سار في موكب صغير غابت عنه شلته الليلية، «أمر مفهوم. خفافيش الليل لا تظهر في وضح النهار».. لم تكن هنالك جثة ولا تغسيل، حمل مع غيره نعشا فارغا إلى مقبرة العالية، فالجثة أو ما تبقى منها سبقتهم إلى هناك، حملها رجال الدرك في صندوق خشبي من النوع الرخيص، كان صندوقا صغيرا. تعجب حليم وهو يرى الصندوق في جوف القبر، تساءل في بلادة «كيف لهذا لصندوق أن يسع جثة شيكور الديسات؟»، ولكنه سرعان ما تذكر قول أبيه «تشوهت جثته وتقطعت إربا».. تساءل من جديد أي نهاية هذه لرجل مثل عمار الطونبا، هذا

الذي أرهب اللوطيين وقمع المخنثين واستنعج الشواكر، نهاية كلب والعياذ بالله..

في الديسات لم يبد أحد مهتما بموت عمار أو حزينا. قالت نيسة بوتوس: «سأفتقده فقد كان فحلا».. قال عيسى البوسعادي: «خلصنا الله من شره». قالت شلته الليلية: «كان رجلا بحق، لا أحد يلف سيجارة مثله»..

لا أحد كان حزينا، عدى أم عمار وحليم بن صادق..

أثناء ذلك كان عمار الطونبا، الميت في الديسات والحي في الحقيقة، قد استقر في بوهارون التي دخلها عشية سلمته نيسة المال، اتصل ب»معرفته» وتواعدا في موقف الحافلة، وبعد أن تناولا بعض الأكل وارتشفا فنجاني قهوة، أخذه معرفته إلى بيت القصدير الذي حدثه عنه، قال له مداعبا:»هذا قصرك الآن». ثم أضاف:» الليلة تبيت عندي وغدا ننظف بيتك ونحضر بعض الفرش وقارورة غاز و«طابونة»[27] ونوصله بالكهرباء من العمود الذي بالجوار»، وهكذا فعلا واستقر الطونبا في بيته الجديد، بدأ حياة جديدة، توقف عن استهلاك الزطلة وشرب الخمر، أما التدخين فلم يستطع الإقلاع عنه، ثم بدأ في تعلم حرفته الجديدة، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح اسكافيا مبتدئا واشترى لنفسه عدة العمل.

-8-

توقف رنين الهاتف فانمحت الابتسامة التي ارتسمت على وجه حليم بن صادق، وعوضتها ملامح لا وصف لها، تذكر للتو أنه لم يعط أباه مفتاح الشقة الجديدة، فبعد عشرين سنة من إيجار شقة باش جراح قرر مالكها استرجاعها، ولأن شقق باش جراح لم تعد في متناول عائلة بن صادق، أجر حليم شقة في الضواحي الشرقية بالكاليتوس، بمكان اسمه أولاد الحاج على طريق الدار البيضاء، كانت الشقة من أربع غرف أهملها صاحبها القاطن في بجاية. بدا الأمر غريبا أن يتملك رجل يسكن في بجاية شقة في العاصمة، ولا تملك عائلة بكاملها ولدت وعاشت في العاصمة نصف سقف فيها. قال له أبوه أن صاحب الشقة مجاهد سابق، كافأته الدولة بحانة وببعض العقارات هنا وهناك وبمنحة شهرية محترمة أخرجته من «الغرقة»[28]، سأل أباه "وأنت ألم ترو لي أنك كنت تقتسم أجرك مع المجاهدين، وتوفر لهم المخبأ وقت الحاجة، لهم ولسلاحهم؟". أجابه: "ولكنني لم أكن مجاهدا بحق"، تعجب حليم:

"وماذا تسمي عملك هذا؟.."، ثم ساءل نفسه:" إذا كان من يمول إرهابيا ويوفر له المخبأ تعتبره الدولة إرهابيا، فلم لم تعتبر أبي مجاهدا؟".

لم يكن أبوه مجاهدا ولا حركيا، كان واحدا من الشعب، لا صفة له، الشعب العظيم الذي يشيد به السياسيون في كل خطاب، الشعب الذي تنسب إليه الثورة "الثورة من الشعب و إلى الشعب"، ولكنه شعب لا مجاهد ولا حركي، لا صفة له مثل أبيه الأجير المستأجر، أبوه الذي لا يملك شبرا في وطن كالقارة، الميت أفضل منه يملك قبره، لا يعاني أزمة سكن، ولا أزمة بطالة..

بمثل هذا تملكته فكرة الموت، واستمرت في إغرائه وهو يقاوم، وكأي إغراء فلا بد أن ينتهي إلى قرار، وكان قراره أن ينتهي من حياته. كان يقاوم الفكرة ويحتال عليها بالصلاة والتوبة، وأحيانا بمشاهدة فيلم خليع خلسة، إلا أنه في النهاية تأكد أن لا التوبة ولا الفسوق سيعيد إليه إيمانه بالحياة، وجاء خبر انتحار عمار الطونبا ليقضي على شتات إرادته في الاستمرار. عمار المحب للحياة، الرافض لكل سلطة، المتمرد على كل شيء.. انتحر. أي سخرية هذه أيها القدر، من الحياة المفرطة بالحب، إلى الموت المفرط بالكراهية، من نور الحلم المتحالم إلى ظلمة القبر الدامسة.. لطالما تساءل: "ألا مكان بين الأمل واليأس، بين الطمأنينة والخوف. ألا مكان بين بين، أم أن أبي فقط من وجد منزلة بين المنزلتين: لا حركي ولا مجاهد، لا غني ولا فقير، لا ساكن ولا متشرد؟".. ظل يتساءل حتى بلغ اليقين، تجلت الحقيقة في قلبه أخيرا، "هي لعبة إذن؟". قال لنفسه." الآن فهمتك أيها القدر، أيتها الحياة، أنت كأي غانية كلما سعيت إليك تماديت في الفراق، وحين أبتعد تلوحين لي، فيأسرني طمع رضاك مرة أخرى، فأدنو.. أدنو إليك وكلما أدنو أراني أبتعد، وأقول في طيبة الطامع الآمل: ربما.. وأقول قد..، لكنك أنت كما أنت، لا خلاص من ألمك المزمن، إلا بالتوقف عن الأمل، الطمع، الحب، لا خلاص منك إلا بمفاجآتك. أشعتِ بين الناس أن الرزق مقسوم، وأن كل شيء قضاء وقدر، سأثبت أنك كاذبة، سأكون أنا الاستثناء في قاعدتك، سأحدد ساعة موتي بالساعة والطريقة، وستنظرين إلي كما سينظر الناس وأنا أخترق القاعدة، وحينها وحينها فقط، سأتحرر من لغوك الذي لا ينتهي وأخرج من اللعبة، لعبتك أنت.."

حين توقف رنين الهاتف، كان حليم بن صادق قد بلغ الطابق العاشر، ولم يعد يفصله عن لحظة الارتطام إلا سبع ثوان. بدأ يشعر أن سرعته تزداد مع اقترابه من الأرض، إلا أن ذلك لم يرعبه، كان يعلم بحدوث ذلك وهو يضع خطته للانتحار، ربما يكون قد خاف بعض الشيء، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه، محاولا أن يعثر في ذاكرته على أي ذكرى تنفس عنه. "من لا يخاف من الموت؟". قال لنفسه "حتى عمار الطونبا خاف منها بلا شك، وما اختياره الموت تحت سكة الحديد، إلا دليل على خوفه، اختار طريقة سريعة للموت، مؤلمة ربما ولكنها سريعة، لم يكن مضطرا لامتحان شجاعته، كان شجاعا بما يكفي في حياته، أما أنا فاخترت أطول طريقة ممكنة، لأمتحن شجاعتي وحتى أسخر من الحياة التي سخر منها عمار حين أدمن الكيف والشراب".

لم يكن حليم بن صادق ليعلم أن عمار الطونبا الذي أصبح اسمه "حكيم الكردوني"، توقف عن الإدمان، وأصبح في ظرف أسابيع رجلا شريفا مسالما، وإلا لما تشجع به على الموت في آخر لحظاته، ولكن الجهل نعمة في كل الأوقات، لاسيما لعمار الطونبا الذي كان يجهل أنه انتحر، وتم دفنه والصلاة عليه. كان يجهل بموته إلى أن جاءه "معرفته" بأخبار تصم الآذان. ففي مساء يشبه أي مساء، كان حكيم الكردوني في مقهى الحواتة، على بعد أمتار من الميناء، حيث اعتاد الجلوس والراحة بعد انتهائه من عمله. وفي مثل تلك الساعة تمتلئ المقهى بعمال الميناء البحري بكل أصنافهم: البحارة، تجار السمك، أصحاب المبارد، خياطو الشباك، الكونفوايورات والحمالون، وملاك الفلوكات وأحيانا تتشرف المقهي وروادها بزيارة أصحاب الشلوتيات الكبار، ولكن نادرا ما يحدث ذلك، فمن عادة هؤلاء أن يمضوا أماسيهم وجزء من الليل في البلاديوم، ملهى ليلي يقع على أطراف بيرار. ولم تكن من عادة المقهى أن تستقبل غريبا عن البحر باستثناء باعة المحاجب والفول السوداني، ولكن هؤلاء لا يمكثون من الوقت إلا ما تستغرقه سلعتهم، ومع شره البحارة فلم يكن مكوثهم بالمقهى يدوم طويلا. أما حكيم الكردوني و"معرفته"، فقد استقبلتهما المقهى بحكم أنهما اسكافيا الميناء، وباعتبارهما يعملان على حدوده، ثم إنهما غريبان عن بوهارون، وليس من الشهامة إحراجهما، والبحارة كأهل الريف يفهمون في أصول الشهامة.

جلس "معرفة" عمار يتلهف الحديث وكان قد عاد للتو من العاصمة:

- جئتك بأخبار من الحومة لن تصدقها

- لا تخف، بعد الذي حدث معي يمكنني أن أصدق أي شيء

- ولكنها أخبار لا تحدث إلا في الأفلام

- لا تقل لي أن نيسة تزوجت أو أن حليم أصبح ثريا

قال حكيم الكردوني وأضاف ساخرا:

- أو أن حليم تزوج من نيسة

- لا.. ليس هذا، فهذه أمور رغم غرابتها يمكن أن تحدث

- إذن تكلم.. قل ما حدث

قال حكيم الكردوني بشيء من الحزم

- لا، ليس قبل أن تدعوني إلى فنجان قهوة، وان شئت فنجان قهوة وقارورة عصير، فهذا ثمن زهيد لأخباري الغريبة

- كما تريد أيها المحتال، ولكنني أحذرك، إن لم تكن تستحق فستدفع أنت الحساب

وأضاف بعد أن طلب لمعرفته فنجان قهوة وقارورة عصير:

- الآن ما وراءك؟

- ذهبت كما أوصيتني لأستطلع أخبار أمك ولأشكر حليم نيابة عنك وأرد له ماله

قاطعه متلهفا:

- وكيف وجدت أمي؟

- بخير وبألف عافية

- وبالطبع أبلغتها سلامي وشوقي إليها.. هل ما زالت غاضبة مني

- لا لم أفعل لأن خبرا عظيما تناهى إلي قبل أن أرى أمك

- أي خبر، هل حدث شيء لإخوتي أو لحليم

- ليس هذا، فحين ذهبت إلى بيت حليم لم أجده، فأعطيت أمه المال وأوصيتها أن تقول له أنني صديق عمار الطونبا، فقالت شيئا غريبا، قالت: رحمه الله. سألتها

"رحم الله من؟"، فأجابت متأثرة:" صديقك، ألم تسمع بموته، لقد مات تحت القطار؟".

- مِتُ تحت القطار؟

- هذا ما قالته، وأضافت أن أمك كادت أن تموت عندما أخبروها أن ولدها انتحر في محطة حسين داي، وأنهم جمعوا أشلاء جثته ولم يعثروا إلا على بطاقة التعريف التي مكنتهم من التعرف على المنتحر..

صمت "معرفة" عمار لحظة وهو ينظر إلى حكيم الكردوني مصعوقا، ثم أضاف:

- ثم ذهبت إلى زيارة أمك، وقلت لها أنني كنت صديقك وجئت لأطمئن عليها

- وكيف وجدتها؟

- بخير، ووجدت معها خالتك وشقيقتك المتزوجة، وعلمت أنهما انتقلا للعيش معها لمؤانستها

- وبعد؟

- حكت لي ما حدث وأرتني البطاقة التي جاء بها رجال الشرطة

- إذن حدث الأمر مثلما أخبرتك به أم حليم

- وأخبرتني أنها لم تجد من أصدقائك إلا حليم الذي وقف معها، وقام بكل إجراءات الدفن

- لا أحد.. لا أحد

- هكذا قالت

سأله بحسرة:

- وهل أخبرتها عني؟

- لم أستطع، فلو فعلت لاكتشفت الشرطة الأمر، وليس من المستبعد أن يتهموك بقتل القابض

- صدقت؟

ثم أضاف: وما العمل الآن؟

- لا شيء.. أنت الآن حكيم الكردوني وستظل

صمت حكيم الكردوني وهو يفكر في مآله، وفلتت جملة بين شفتيه:

- .. مات الطونبا... عاش الكردوني!

26 واش خرجك هاذ الوقت: معناها «أي شيء أخرجك في هذا الوقت المتأخر؟». سور راك أومبان في الدخان: معناها « أكيد أن سجائرك نفذت»

27 موقد طبخ بثلاثة قوائم قصيرة، شكله دائري.

28 الوحل.

الفصل الثاني

شعر حكيم الكردوني بالملل وهو يسمع نفس الجملة تتكرر على مسمعيه مع كل زبون: «أحبك أن تسرع فأنا مستعجل».

رفع رأسه متكلفا ابتسامة يقتضيها العمل، ونظر إلى المتحدث وقال بهدوء «لا عليك يا سيدي سأنتهي منها في الحال»، ثم انحنى يقلب في الصندل الذي بين يديه، ثم أضاف «هذا صندل من النوع الرديء، أظنه من صنع صيني». تكلف الرجل المستعجل ابتسامة تكاد تقول «وما دخلك أيها الاسكافي الحقير»، واستمر حكيم في الحديث: «لن يكون عملي متقنا إلا إذا تركته عندي نصف ساعة، فعلي أن أغير الفراش، وأصنع له ما يشبه القفل تعويضا لقفله، وكل هذا يحتاج إلى خياطة، ثم يجب أن أسمره وربما أضغطه، هذه أمور تستغرق وقتا». قاطعه الرجل المستعجل:» لا أملك وقتا، ألصقه ببعض الغراء وكفى، فأمامي طريق طويلة، علي أن أصل إلى الكاليتوس قبل صلاة الجمعة». استمر حكيم في العمل وفي دقيقة سلمه صندله وهو يقول «لقد نصحتك، ستكون معجزة إذا بقي سليما ليوم آخر».

هز الرجل المستعجل رأسه ووضع صندله في قدمه وانصرف.

وإذ ذاك قال حليم مخاطبا «معرفته»:

- أكره هذا النوع من الزبائن

- في مهنة الكردوني، جميع الزبائن من هذا النوع

- إذن فأنا أكره كل الزبائن

ضحك «معرفته» وقال:

- وإن يكن، هم أيضا لا يحبونك، لا يأتونك إلا مجبرين

- صدقت، لكن هذا الرجل بدا فعلا مستعجلا

- ربما ليلحق بصلاة الجمعة، فقميصه الأبيض الأميري ورائحة المسك فيه، توحي أنه تهيأ لصلاة الجمعة

- إن كان الأمر كذلك فلا بأس

- وإن لم يكن؟

- فلا بأس أيضا

استغرق صاحب القميص الأبيض ساعتين ليصل إلى الكاليتوس، ساعة ليبلغ العاصمة، وساعة أخرى قضاها في الطريق إلى الكاليتوس، ومع هذا فقد لحق بأذان الخطبتين. دخل المسجد فوجده مكتظا وجلس بين عرصيه مضطرا. كان الإمام يخطب في الناس حول النظافة في الإسلام، وكان الجميع يتظاهر بالفهم والخشوع، بمن فيهم صاحب القميص الأبيض رغم انشغاله بأنفه، فقد شعر بشيء يسد منخاريه، فأدخل إبهامه في أنفه بحثا عنه، وحين وجده، اكتشف أنه لا شيء مهم، فمسح يده على سجاد المسجد، وهو لا يكف عن هز رأسه موافقا على ما كان يقوله الإمام عن النظافة، وما كاد ينتهي من ركعتي الصلاة، حتى أسرع للخروج مثل معظم المصلين.

وضع صندله في قدميه وهم بالانصراف وسط جمع المزدحمين عند باب المسجد، وما كاد يتخطى عتبته، حتى شعر بصندله ينسلخ من قدمه.

«لعن الله هذا الكردوني الكلب»، قال في نفسه متذمرا، ولكنه سرعان ما تذكر نصيحة حكيم الكردوني وتعليقه «ستكون معجزة إذا بقي سليما ليوم آخر»، فاستغفر الله ومضى وهو يسحب صندله.

كانت الساعة الثانية زوالا عندما انتهى الناس من صلاة الجمعة وفتحت المقاهي أبوابها من جديد، أسرع صاحب القميص الأبيض الخطى ليكون مع أول من يبلغ مقهى «لوتسمان» المعروفة بنوعية البن الذي تقدمه، كان يعلم بحكم العادة، أنه لو تخلف قليلا، لن يجد مكانا يجلس فيه. وإذ ذاك تعثر برجْل رَجُل كان يجلس على الرصيف، ممددا ساقه على عرضه، حاول استعادة توازنه بقدمه الأخرى، ولكن صندله الممزق خيب رجاءه، ورغم ذلك حاول أن يمنع سقوطه بشكل كامل حين استعان بيديه ليتّقي السقطة، إلا أن أكياس القمامة الممزقة والمتناثرة حيث كان، خيبت رجاءه مرة أخرى. تلطخ قميصه الأبيض الأميري حتى صار أكثر نجاسة من القميص الأحمر الذي يجلس عليه السيس كانز. ولعل رائحته أصبحت أكثر نتانة من رائحة هذا المجنون، ولم يكن من الغريب أن يقرر الانتقام لنفسه ويشتم السيس كانز، وحين هم بذلك محاولا الوقوف على قدميه، شده منظر أنساه السقطة والمجنون معا. رأى رجلا يستعد لرمي نفسه من إحدى عمارات عدل في الطرف المقابل

للرصيف الذي كان يقف عليه، صرخ في استغراب:

- أنظروا..

فرفع من كانوا حوله رؤوسهم وتسمروا في أماكنهم يبحلقون.

تساءل أحدهم:

- ماذا يفعل، هل سيلقي بنفسه من العمارة؟

رد عليه آخر:

- ربما هو واقف لغرض ما

تساءل ثالث:

- أي عمل هذا وهو يقف على حافة السطح؟

واستمرت التعاليق والتساؤلات دقائق دون أن تتوقف، فكلما وقف أحدهم طرح سؤالا أو علق بشيء، فيجيبه الآخرون بما يعلمون أو بما لا يعلمون، ولكن التساؤلات سرعان ما توقفت حين ألقى حليم بنفسه أخيرا، ليفسح المجال للتعليقات ويقطع الطريق على أسئلة المحتشدين السخيفة. فأخيرا تأكد الناس أن الرجل وقف على الحافة لينتحر..

كان المتفرجون كلما اقترب حليم من الأرض مسافة إلا وازداد عددهم، حتى إذا بلغ نصف المسافة فاض الرصيف بهم، حتى لم يجد من لم يسعفهم الحظ منهم بمكان على الرصيف إلا الوقوف وسط الطريق.

توقفت السيارات القادمة والذاهبة، بقي بعض أصحابها داخلها في حين خرج الباقون من سياراتهم والتحقوا بالمتفرجين. وعلى حين غرة سمعوا صوت فرامل تسحب ثم صوت اصطدام عنيف..»يا ألله». صرخ بعضهم، ثم اندفعوا، فرأوا سيارة باريس هشمت مقدمتها شاحنة بان زرقاء محملة بالأثاث، وسائق الشاحنة ورفيقه يحاولان الخروج منها، وإذ ذاك سمعوا أحدهم من خلف يصرخ: «سيارتي.. أفسحوا لي الطريق» وخلفه شابة بدا أنها معنية بالاصطدام .

- من.. عمي خليفة

صاحت الفتاة مندهشة، وهي ترى والد خطيبها السابق ووجهه تملؤه الدماء

- أهذه أنت..

صاح عمي خليفة، وقبل أن يضيف شيئا، سقط شيء من السماء، فاستدار إلى شاحنة البان.

رفع رأسه، فرأى رجلا ممددا على بطنه فوق الفرش الذي جعله عمي خليفة على الأثاث..

سادت لحظات من السكون، توقفت التساؤلات، وتسمر الناس في أماكنهم فاغرين أفواههم، وكأنهم حدوث أمر ما، حتى الدهشة التي تملكت نبيلة منذ حين، لحظة تفاجأت بعمي خليفة تطيرت سكرتها.. رأت الرجل ممددا فوق الحافلة. حاولت أن تقول شيئا ولكنها لم تستطع، لجمتها دهشة أكبر وأعظم حين أدركت أنه يشبه...، ضاعت كلماتها بين حلقها وشفتيها، تماما كما أضاعت الدهشة لساني عمي خليفة والسائق حين أدركا أنه...، في حين تملص بعض المندهشين من الصدمة وصرخوا في صوت واحد «سبحان الله» وهم يرون الرجل الممدد على بطنه يرفع رأسه بروية ويفتح عينيه.

بحلق فيهم جيدا قبل أن يتفوه بشيء بالكاد التقطته أذنا نبيلة: «أهذه أنتِ...». ثم أشاح نظره عنها إلى حيث كان والده يقف وهو يجهد نفسه في جحظ عينيه، وقال من جديد:» أبي.. أهذا أنت..». وقبل أن يتحقق من الوجوه.. أغمي عليه.

***

مضت أربعة أيام على حادثة الانتحار. نجا حليم ولم يصب إلا بكسر في يده ورجله اليسرى، لذلك اضطر أن يلازم البيت، وقد بدا على والديه أنهما نسيا قصة انتحاره، ولم يعد الأهل وزملاء العمل يحدثونه عنها، حتى الصحافة التي كتبت عن الأمر يومين كاملين، فتر اهتمامها أخيرا بعد أن جعلت من قصة حليم بن صادق قضية رأي عام، اضطرت السلطات للتظاهر أنها مهتمة بالموضوع، ووعدت أنها ستدرس في القريب العاجل مسألة «انتحار الصحفيين»، وخاف مدير حليم السابق من الفضيحة، فأرسل إليه باقة ورد وشيكا بمستحقاته القديمة، ووعده بمنصب محترم حين يتعافى بعد شهرين. وعادت نبيلة ميحانيك إلى حياته من جديد، بعد أن أقنعته أن القضاء رتب لقاءهما على ذلك الشكل الغريب، وأصبحت خطيبته من جديد.

هكذا تغيرت حياة حليم بن صادق وبدا أنها تسير إلى الأحسن، فبعد عروض

العمل التي حصل عليها لن يخشى البطالة من جديد، ولن يجرأ أحد من مديريه المستقبليين أن يأكل حقه مثلما فعل مديره السابق، فهو الآن رجل مشهور، تعرفه الوزارة والمير وجميع الناس.

(إذن فالأمر غاية في البساطة، حين تضرب عن الحياة تأتيك صاغرة، وهو ما فعله منذ أيام حين ألقى بنفسه من علو خمسة عشر طابقا، كان شجاعا ويستحق الآن النعيم الذي ينتظره والسعادة التي يشعر بها).

كان حليم في غرفته كالعادة، مستلقيا يشاهد التلفاز، ويتسلى بأكل المكسرات، فهو الآن قادر على دفع ثمنها، ولا حاجة له للادخار، ولا خوف عليه من الإفلاس، إذ ليس عليه إلا أن يطلب فيعطى، هكذا قال له الوزير حين زاره في المستشفي، وهمس له المير «بالنسبة للسكن، قبل أن تقوم بالسلامة سأكون قد تدبرت لك مسكنا». فالأمر أصبح محسوما ولا خوف عليه بعد الآن.

دخل عليه أبوه وهو منشغل بالمشاهدة والمكسرات:

- جاءتك رسالة

- رسالة؟

قال مستفهما

- تركها ساعي البريد عند خالتك أم عمار

تفحصها فعرف الخط، كان خطه. هي الرسالة التي بعث بها إلى نفسه منذ أسبوع يشرح فيها أسباب انتحاره، فغلبته البسمة.

سأله أبوه:» هل هناك من خطب». أجابه:» لاشيء مهم»، فانصرف عمي خليفة وأغلق عليه باب الغرفة.

فتح حليم الرسالة وهم في قراءتها بنهم وكأنه لا يعرف فحواها، كل ذلك وهو لا يكف عن أكل المكسرات، استمر في قراءتها حتى عثر على شيء أضحكه، ثم على آخر فتملكه الضحك وهو يقرأ متلهفا، حتى توقف فجأة عن الضحك والقراءة. جمدت حدقتاه عن الحركة، وارتفعتا إلى أعلى وقد جحظت عيناه وهو يرعش، فأفلتت يده الرسالة، التي تهاوت لتستقر على حجره. حاول الجلوس ولكنه خر في مكانه ووجهه يحمر كأن النار اشتعلت فيه. حاول أن يضرب على صدره بيده غير المجبّسة، وقد أدرك أن شيئا يمنعه من التنفس.. حاول ولكن دون جدوى. وهو ينظر صوب الباب،

والباب موصدة مثلما تركها أبوه، فحول ناظريه عنها إلى السقف حيث رأى مصباحا مطفأ، فراعه أن يكون هذا آخر ما سيذكره عن الحياة، فأشاح بناظريه عنه وأمال جسده المرتعش، حتى واجه النافذة، ثم استسلم للاختناق.. لم ير شريط حياته يعرض عليه مثلما تصور، كان الصمت وحشرجة صوته المختنق ما يملآن لحظته الأخيرة. وأخيرا خر ميتا.

بدا وعيناه معلقتان أنه ينظر عبر نافذته إلى السماء الملبدة غير سعيد بموته اليوم، فلم يكن يوما رائعا يصلح للحياة ولا يوما سيئا للموت، كان يوما وفقط..

في اليوم الموالي لم تكتب الصحافة شيئا عنه، ولا في اليوم الذي تلاه ولا حتى بعد أسبوع، ولم يعرف أحد بعدها ما قرأ حليم بن صادق في رسالته تلك، لكن الأكيد أنها كانت رسالة بعثت من قاع القبر على أجنحة الموت...

انتهت

في 25 ديسمبر2008

يوم رائع للموت

رواية

سمير قسيمي

• روائي من الجزائر

أكثر ما كان يشغل باله لحظة قفز في الهواء، ما أصاب الوقت من تمدد، جعله يتصور أن الوقت المتبقي في حياته أطول من حياته كلها، وإلا كيف راوده الشك في قراره بالانتحار، وكيف أدرك أنه شكّ، ألا تستغرق رحلة إدراك العقل للمشاعر أكثر من عشر ثوانٍ؟، فكيف إذن لم يستغرقه هذا الإدراك إلا جزء من ثانية؟.

«ربما هو شعور سابق للحظة»، قال لنفسه محاولاً طمأنتها وهو ينظر إلى جسده الضخم يتهاوى من علٍ. لحظتها أدرك أنها المرة الأولى في حياته التي ينظر فيها إلى جسده بالمقلوب، ولعلها المرة الأولى التي يستغرب فيها من ضخامة بطنه، فلم يكن يتصور أنها على هكذا ضخامة، ثم سرعان ما كره ما كان يرتدي من لباس، فتساءل بما يوحي بالحسرة: «هل ستذكر الجرائد غداً ما كنت ألبس؟».. كان هذا السؤال كافيا ليبعث الشك في نفسه من جديد، فلعله لم يحسب للأمر كما ينبغي، أو على الأقل تجاهل بعض التفاصيل في خطته التي كانت تقتضي أن يكون موته مأساوياً، غاية في الشاعرية والفلسفة، ولكن ما كان لكذا تفصيل أن يكدر سعادته بانتصاره التاريخي على القضاء، لأنه حين تحين لحظة الارتطام -بعد أقل من عشر ثوانٍ- سيكون قد سُجّل مع الذين استطاعوا بشجاعتهم أو بتهورهم (لا يهم)، أن يتحكموا بمصائرهم، ويحددوا تاريخ موتهم.. إنه انتصار ساحق على هذا الذي قيل أنه لا يهزم، لم تعد الحياة بالنسبة له كرة تلهو بها رِجْل القدر، فتسجل الأهداف كيفما شاءت ووقتما تريد.

ISBN 978-9953-87-734-1
9 789953 877341

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة – الجزائر
editions.elikhtilef@gmail.com
ردمك: ISBN: 978-9947-945-03-2



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

